الفصل الرابع

الخلافة الفاطمية فى مصر

اهتم المؤرخ ابن أبى طى الحلبى فى كتاباته بدراسة تاريخ مصر، فألف عنها كتابا بعنوان «تاريخ مصر»[١]، كما تطرق لتاريخ مصر فى سياق مؤلفات تخصصت فى موضوعات أخرى، وغطت هذه الكتابات الكثير من تاريخ الخلافة الفاطمية والدولة الأيوبية فى مصر، وبالنسبة لكتاباته عن تاريخ الخلافة الفاطمية موضوع الفصل فقد وصلنا من هذه الكتابات تاريخ آخر عشر سنوات من حكم الخلافة، وتناول فيها أحوال الوزارة الفاطمية فى الفترة من عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م حتى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م.

وقد اعتمدنا فى جمع كتابات ابن أبى طى فى هذا الفصل على عدة مؤلفات له، كان أهمها كتابه الذى خصصه لدراسة السيرة الصلاحية، وقد أفادنا هذا الكتاب فى معظم أحداث هذا الفصل، حيث شهد منصب الوزارة فى مصر فى آخر عشر سنوات من تاريخ الخلافة الفاطمية صراعا كبيرا، ودخل فى هذا الصراع الملك العادل نور الدين محمود سلطان الدولة الأتابكية فى الشام، وأرسل ثلاث حملات إلى مصر بقيادة قائد جيوشه أسد الدين شيركوه، وجاء معه فى هذه الحملات ابن أخيه «صلاح الدين يوسف ابن أيوب» لأول مرة إلى مصر، ثم تطورت أحواله حتى تولى منصب الوزارة فى مصر، ولهذا تعد هذه الفترة من تاريخ الوزارة الفاطمية ذات أهمية كبيرة فى كتابة سيرة السلطان صلاح الدين ؛ ولهذا اهتم ابن أبى طى بتاريخ هذه الفترة ضمن كتابه الذى أرخ فيه لسيرة السلطان صلاح الدين. وقد وجدنا صفحات عديدة من هذا الكتاب ضمن كتاب أبى شامة «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، وأيضا ضم كتابه «عيون الروضتين»

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

خبر اسقاط صلاح الدين المكوس فى مصر فى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م.

كما اعتمد «ابن قاضى شهبة» على أبى شامة، وأورد عنه فى كتابه «الدر الثمين فى سيرة نور الدين المعروف باسم الكواكب الدرية»، بعض الروايات المتعلقة بفترة وزارة صلاح الدين فى مصر حتى سقوط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م.

واعتمدنا أيضا فى هذا الفصل على كتاب معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء وذوى الرتب لابن أبى طى، وقد أفادنا هذا الكتاب فى رواية واحدة، اوردها له ابن الفرات فى المجلد الرابع المطبوع من كتابه تاريخ الدول والملوك.

وأفادتنا بعض المؤلفات الأخرى لابن أبى طى، ولكننا لم نقف على عناوينها، حيث أورد راوى الخبر فقط أنه نقلا عن ابن أبى طى دون أن يشير إلى اسم كتابه، ومن ذلك النصوص التى أوردها له ابن كثير ضمن كتابه البداية والنهاية، والمقريزى فى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

أحوال الوزارة الفاطمية فى مصر
(٥٥٦-٥٦٧هـ/ ١١٦١-١١٧١م)

شهدت الوزارة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤م) مرحلة جديدة فى تاريخها، وتحديدا منذ أن تولى له الوزارة فى عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤ م قائد جيوشه «بدر الجمالي»، حيث تحولت السلطة فى الخلافة من أيدى الخلفاء إلى الوزراء، وتدريجيا صار منصب الوزارة للأقوى عسكريا «من قهر بالسيف أخذها»[1]. وقد تفاقم هذا الأمر وزاد التنافس على منصب الوزارة فى آخر عشر سنوات من تاريخ الخلافة الفاطمية (٥٥٦-٥٦٧هـ/ ١١٦١-١١٧١م)، ولهذا شهدت هذه الفترة العديد من التغييرات الوزارية، وقد توفرت لدينا العديد من كتابات ابن أبى طى عن هذه الفترة، ونستطيع أن نقسم كتاباته عن هذه الفترة إلى ثلاث مراحل، تعكس كل مرحلة تطورا جديدا فى أحوال الوزارة:

المرحلة الأولى: ٥٥٦-٥٥٩ هـ/ ١١٦١-١١٦٤ م

شهدت الوزارة الفاطمية فى هذه المرحلة اضطرابا كبيرا، منذ مقتل الوزير «الملك الصالح طلائع بن رزيك» فى رمضان عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م، حيث خلفه ثلاثة وزراء فى أقل من ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: ٥٥٩-٥٦٤ هـ/ ١١٦٤-١١٦٩ م

وصل الصراع على منصب الوزارة فى هذه المرحلة إلى حد الاتصال بدول خارجية لطلب المساعدات العسكرية لتولى منصب الوزارة بالقوة، ولفتت بذلك الأنظار الخارجية إلى مدى ضعف الوزارة، وبدأ التخطيط الخارجى للاستيلاء على مصر فشهدت هذه الفترة

---

(١) ابن الطوير : نزهة المقلتين ، ص٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١، ص١٣٧-١٣٨.

ثلاث حملات وجهتها الدولة الأتابكية فى الشام فى عهد الملك العادل نور الدين محمود إلى مصر، كما أرسلت أيضا مملكة بيت المقدس الصليبية ثلاث حملات، وانتهى الأمر بأن أصبحت الوزارة تتبع فعليا سلطة الدولة الأتابكية حيث تولاها قائد جيوشه «أسد الدين شيركوه»، ودخلت الوزارة بذلك مرحلة جديدة.

المرحلة الثالثة: ٥٦٤ ـ ٥٦٧ هـ / ١١٦٩ ـ ١١٧١ م

ظلت الوزارة الفاطمية فى هذه المرحلة فى أيدى قواد نور الدين محمود، وتولاها بعد وفاة شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى، ومهدت فترة وزارته إلى سقوط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، وعادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية، كما أصبحت تتبع سلطة الدولة الأتابكية فى الشام.

المرحلة الأولى: ٥٥٦ ـ ٥٥٩ هـ / ١١٦١ ـ ١١٦٤م

بدأت كتابات ابن أبى طى عن هذه المرحلة بأحداث مقتل الوزير «الملك الصالح طلائع بن رزيك» فى عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م، ثم أوضح التنافس الذى شهدته الوزارة حتى انتهاء وزارة «ضرغام» فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، وكما ذكرنا من قبل فقد شهدت هذه المرحلة ولاية ثلاث من الوزراء الحكم فى الخلافة الفاطمية، فى أقل من ثلاث سنوات، وهذا يعكس مدى الصراع الذى دار حول منصب الوزارة .

وزارة الملك الصالح طلائع بن رزيك

٥٤٩ـ٥٥٦هـ/ ١١٥٤ـ١١٦١ م

تولى «طلائع بن رزيك»[١] الوزارة للخليفة الفاطمى «الفائز بنصر الله» (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م)، فى عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م، بعد أن نجحت قواته فى هزيمة الوزير السابق له «عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم الصنهاجي» (٥٤٨ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٥٣ ـ ١١٥٤ م)، و نعت «بالملك الصالح» و «بفارس المسلمين نصير الدين»، واستبد بجميع أمور مصر، ولم يكن للخليفة معه أمر ولا نهى، وبعد وفاة الخليفة الفائز فى عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، اختار طلائع بن رزيك العاضد لدين الله ـ وهو ابن عم الخليفة الفائز ـ ليكون خليفة على مصر[٢].

وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن فترة وزارة «طلائع بن رزيك» بعض الأحداث التى توضح سوء فترة وزارته، و التى كانت فيما بعد سببا مباشرا للتحريض على

---

(١) هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني الأصل : ولد في عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م ، كان والده « أسد رزيك » قد قدم إلي مصر مع أمير الجيوش « بدر الجمالي » في عام ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤ م ، وعمل طلائع واليا علي البحيرة ، ثم واليا علي الأشمونين والبهنسا . وقد كان يهتم بالعلماء ، وعرف عنه أيضا أنه كان كثير الصدقات ، كما اشتهر بكتابة الشعر ، وكان يعقد مجلسا يجمع فيه الكثير من الأمراء المقربين له في مصر ومن خارجها أيضا ، ومنهم المؤرخ « عمارة اليمني » . وقتل طلائع بن رزيك في تاسع عشر رمضان في عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م . (لمزيد من التفاصيل انظر : عمارة اليمني : النكت العصرية ، ج ١ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر، شعراء مصر ، ج ١، ص ١٧٤ ، ١٧٦ ـ ١٨٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٧٥ ـ ٧٦؛ ابن ميسر : المنتقي ، ج ٢ ، ص ١٣٥؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ ؛ المقريزي :اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ، ٢٥١؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٤٥) .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٧٣ ؛ ابن الطوير : المصدر السابق ، ص ٧٠ ــ ٧٣ ؛ ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٩ـ ١٥٠؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ .

قتله مرتين من قبل «عمات» «الخليفة العاضد لدين الله»[1]. وقبل أن نبدأ فى عرض كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع، رأينا أن نشير بإيجاز إلى نفوذ عمات العاضد فى الخلافة الفاطمية كمقدمة قبل أن نوضح دورهن فى التحريض على قتل طلائع بن رزيك حسبما ورد فى رواية ابن أبى طى.

أنجب الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (٥٢٦ ـ ٥٤٤ هـ / ١١٣١ ـ ١١٤٩ م) عددا من الإناث، ذكرتهن المصادر العربية باسم أخت الظافر، و عمة الفائز، وعمة العاضد و قد برز دورهن فى خلال فترة خلافة الفائز بنصر الله، ومن بعده فى أوائل خلافة ابن عمه العاضد لدين الله، فذكرت المصادر أن «أخت الظافر» وقفت فى وجه الوزير «عباس بن أبى الفتوح الصنهاجي» عندما قتل ولده «نصر» أخوها الخليفة الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م) فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م فقامت بمراسلة طلائع بن رزيك ـ وكان فى ذلك الوقت واليا على الأشمونين والبهنسا ـ فتمكن من هزيمة الوزير عباس، كذلك عندما حاول الوزير عباس الهرب إلى الشام راسلت الوالى الصليبى بمدينة عسقلان، وبذلت له الأموال فى مقابل منعه، والاستيلاء على ما كان معه من الأموال.

ونستطيع أن ندرك أيضا مدى نفوذ إحدى عمات العاضد و كانت تعرف «بست القصور» مما ذكره عنها «عمارة اليمني» عندما زار مصر فى عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥م حيث أوضح أنها أعطته مبلغا مساويا للمبلغ الذى أعطاه له الوزير طلائع بن رزيك وكان خمسمائة دينار. ولهذا لم يكن غريبا فى ظل ما كانت تتمتع به عمات العاضد من نفوذ، أن تتصدى أيضا للوزير طلائع بن رزيك عندما استبد بالأمور، فدبرت إحدى عمات العاضد قتله فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، لكنه كشف أمرها وقتلها واستمر فى نفس سياسته، فقامت عمة

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الخليفة الحافظ بالله عبد المجيد : ولد في عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وبويع له بالخلافة بعد وفاة ابن عمه « الفائز » ، وكان يبلغ إحدى عشرة سنة ، واستمرت مدة خلافته حتى وفاته في يوم عاشوراء عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م . وسوف نذكر المزيد عن فترة حكمه في متن أحداث هذا الفصل . (أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٣٤) .

العاضد الصغرى بالتحريض على قتله فى العام التالى ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م[١].

وقد تناول ابن أبى طى فى روايته عن مقتل الوزير طلائع بن رزيك تفاصيل المحاولتين التين قامت بهما عمات الخليفة «العاضد لدين الله» من أجل القضاء عليه موضحا الأسباب التى دفعتهما إلى القيام بذلك. فقال عن المحاولة الأولى: «وفيها (عام ٥٥٦ هـ) قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله، وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال، واحتاط على عمة العاضد»[٢].

وهذه المحاولة وقعت أحداثها كما ذكر بعض المؤرخين فى عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وبذلت فيها عمة العاضد خمسين ألف دينار لقتله، وبعد فشل هذه المحاولة قام الوزير طلائع بن رزيك بقتل عمة العاضد سرا، ونقل كفالة الخليفة «الفائز» إلى عمته الصغرى، وكان عندئذ فى الحادية عشر من عمره[٣].

ثم تناول ابن أبى طى الأسباب التى أدت إلى مقتل طلائع بن رزيك قائلا: «وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء، ونكبهم و تمكن من الدولة تمكنا حسنا»[٤].

وهناك أيضا أسباب أخرى أوضحها بعض المؤرخون، كما تناولوا الظروف التى مكنت طلائع بن رزيك من السيطرة على الحكم، وكان فى مقدمتها صغر سن الخليفة

---

(١) عمارة اليمني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤ ؛ ابن الطوير : المصدر السابق ، ص ٧٠ ـ ٧٣ ؛ ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، ١٥٢ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ؛ المقريزى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٣ ، ٢١٥ ـ ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٠ ، ٣١٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٤ ، ٧٦ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٤ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١٢ .

العاضد لدين الله، حيث كان يبلغ عند ولايته للخلافة فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م أحد عشرة عاما، فاستبد لذلك طلائع بن رزيك بالأمر، وصار العاضد تحت قبضته، وزوجه من ابنته، فأدى ذلك إلى معاداة نساء القصر الفاطمى له، كما قام بوضع الرقباء على القصر الفاطمى، واتبع مع كبار أمراء الدولة سياسة التفريق والقتل، وخفض من رواتبهم، فأدى ذلك إلى كراهيتهم له[١].

ثم أوضح ابن أبى طى أحداث المحاولة الثانية التى انتهت بقتل طلائع بن رزيك

فقال: «أن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من «السودان»[٢] مالا جزيلا حتى أوقعوا به الفعل»[٣].

ونلاحظ هنا أن ابن أبى طى لم يفرق بين عمتى العاضد، وكتب روايته على أنهما عمة واحدة، فى حين ذكر من لحقه من المؤرخين أنهما كانتا عمتين: الأولى قتلها طلائع ابن رزيك كما سبق أن أوضحنا، أما الثانية فهى تعرف «بست القصور» وهى التى نفذت قتل طلائع بن رزيك فى عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م[٤].

---

(١) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ، ص ١١١ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ، ٧٥ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٢٤ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٦ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ .

(٢) السودان : بدأ دخول عنصر السودان في الجيش في مصر في عهد الأمير « أبي بكر محمد بن طغج الإخشيد » ، حيث استجد منهم « كافور الإخشيدي » عدة في الجيش ، و شهد عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م) انتشارا كبيرا لهم في الجيش الفاطمي ، حيث كانت أمه جارية سوداء ، وتولت شئون الحكم في بداية عهد المستنصر ؛ فاستكثرت من شراء العبيد حتى وصل عددهم إلي أكثر من خمسين ألفا . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٩٤ ، ٣٣٥) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١٢ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ٧٦ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص، ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٤.

وقد اختلف ابن ظافر مع ما ذكره ابن أبى طى عن دور عمة العاضد فى التخطيط لقتل طلائع بن رزيك، وذكر أن الخليفة الفاطمى «العاضد لدين الله» كان وراء هذا المخطط بالاتفاق مع بعض القوات فى الدولة[١]. وهذا الرأى يبدو - فى رأينا - غير منطقى لصغر سن الخليفة العاضد فى ذلك الوقت، ولاتفاق ابن أبى طى وكثير من مؤرخى الخلافة الفاطمية على قيام عمة العاضد بالتحريض على قتل الوزير طلائع بن رزيك[٢]

ثم عرض ابن أبى طى وصفا لتنفيذ مخطط قتل طلائع بن رزيك، فقال: «جلسوا له فى بيت فى دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان، ركب إلى القصر ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة ووقعت الصيحة، فعثر الصالح بأذياله، فطعنه أحدهم بالسيف فى ظاهر رقبته فقطع أحد عمودى الرّقبة وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك فى كتفه ولما حصل الصالح فى داره أوصى ولده رزيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم»[٣].

وبهذا نكون قد انتهينا من عرض رواية ابن أبى طى عن مقتل الوزير طلائع ابن رزيك، وفى حقيقة الأمر فإن كتاباته عن هذا الموضوع تعد من أوائل الروايات التى وصلتنا من خلال المصادر الإسلامية عن هذه الحادثة، وأوردها من بعده كبار مؤرخى الخلافة الفاطمية اللاحقين به، وقد لاحظنا اتفاق كتابات معظم هؤلاء المؤرخين مع أحداث رواية ابن أبى طى[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٢ . وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٨؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ١٦؛ الذهبي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ٣، ص ٣١١؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٥٩؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٧٧ .

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٤، ص ٧٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٤٦ - ٢٤٧؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣١٢ .

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٤، ٧٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٨ - ٢٣٩، ٢٤٦ - ٢٤٧؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

وزارة الملك العادل رزيك

(رمضان ٥٥٦ ـ المحرم ٥٥٨ هـ / ١١٦١ ـ ١١٦٣ م)

عرض ابن أبى طى بعض ملامح وزارة «الملك العادل رزيك»[١]، فأوضح ولايته الوزارة خلفا لوالده، ثم تناول موقف العادل رزيك من عمة العاضد التى حرضت على قتل والده، فقال: «أن الملك الصالح طلائع بن رزيك، وزير الديار المصرية، لما قتل فى رمضان سنة ست وخمسين، بتدبير عمة العاضد عليه.... فلما دفن الصالح

استوزر ابنه رزيك، ولقب بالعادل ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فخنقها»[٢].

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا بالنسبة لرواية ابن أبى طى عن قيام العادل بالثأر من عمة العاضد، إلى أننا لدينا طبعتان لكتاب الروضتين لأبى شامة ـ وهو المصدر الذى أخذنا عنه رواية ابن أبى طى ـ وفى كل منهما رأى مختلف لابن أبى طى. فذكرت الطبعة الأولى أن العادل أرسل إلى عمة العاضد «فحقها»[٣]. أما الطبعة الثانية ـ وهى طبعة محققة ـ فذكرت

---

(١) هو محيى الدين رزيك : تولي الوزارة بعد مقتل والده في رمضان عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م ، ونعت بالسيد الأجل مجد الإسلام الملك العادل الناصر أمير الجيوش ، وقيل عن فترة وزارته أنها كانت من أحسن الفترات ، وأنه سامح الناس بما عليهم من الأموال والحسابات القديمة ، وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين ، فأرسل إلي أمير الحرمين خمسة عشر ألفا أو أقل برسم إطلاق الحاج ، ولما أشار عليه بعض أقاربه بعزل شاور من ولايته بقوص ، كان ذلك بداية لنهاية عهده ، حيث نجح شاور في هزيمته وتولى الوزارة في المحرم ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م ، ثم قتل رزيك بعد ذلك في نفس هذا العام . (عمارة اليمني : النكت العصرية ، ج١ ، ص٥٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،ج ٣، ص ٢٥٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص٣١٦ ـ ٣١٧) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٦ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) المصدر نفسه ، ج١، ص ١٦٥. طبعة دار الجيل ـ لبنان. وهي طبعة غير محققة .

أن العادل أرسل إلى عمة العاضد «فخنقها»[١]، ولم تشر الطبعة الثانية إلى هذا الاختلاف فى الطبعة الأولى.

وبمقارنة رواية ابن أبى طى بروايات كثير من المؤرخين، وجدنا أن معظم المؤرخين أجمعوا على مقتل عمة العاضد، وانقسمت آراؤهم إلى قسمين: قسم ذكر أن الوزير طلائع بن رزيك أحضرها لبيته قبل وفاته وقتلها[٢]، وذكر القسم الآخر أن العادل رزيك قتلها بعد ولايته للوزارة[٣]، ومن هنا فنحن نرجح رأى الطبعة الثانية التى ذكرت أن العادل أرسل إلى عمة العاضد «فخنقها»، على أساس إجماع آراء كثير من المؤرخين على قتل عمة العاضد من ناحية، ومن ناحية أخرى أورد بعض المؤرخين أن عمة العاضد قتلت خنقا[٤].

ثم أوضح ابن أبى طى أهم الأسباب التى عجلت بسقوط وزارة العادل، وأرجع ذلك إلى تأثره بآراء أقاربه وعدم اهتمامه بنصائح والده خاصة رأيه فى والي«قوص»[٥]

«شاور السعدي»[٦]، فقال ابن أبى طى: «أوصى (طلائع بن رزيك) عند موته ابنه

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤١٦، تحقيق د. محمد حلمي أحمد، دار الكتب المصرية (١٩٩٨ م).

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٧٥؛ أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٣٩؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٢٤؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٦٢.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٤، ص ٧٧؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٣.

(٤) النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٢٤؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٣.

(٥) قُوص: مدينة كبيرة، وتعتبر قصبة الصعيد في مصر، وهي الآن قاعدة مركز قوص التابع لمديرية المنيا. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، قسم ٢، ج ٤، ص ١٨٧، ١٨٩).

(٦) هو أبو شجاع شاور بن مجير السعدي: عمل في خدمة الوزير طلائع بن رزيك، وولاه الصعيد في عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، فأظهر كفاءة كبيرة، وبعد وفاة طلائع في عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١م، تولي ولده «رزيك» الوزارة، وقام بعزل شاور من منصبه، فثار شاور لذلك وزحف بقواته علي القاهرة، وتمكن من هزيمة رزيك، وتولى شاور الوزارة في المحرم ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م، ولم تمض شهور قليلة علي وزارته في مصر، حتى تمكن «ضرغام» من عزله من الوزارة في رمضان ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م. ثم

رزيك بشاور، وقال له: لا تزلزله من ولايته، فأنه أسلم لك، ويقال أنه أنشد أبياتا منها:

فإذا تبدّد شمل عقدكما لا تأمنا من شاور السعدي

وكان شاور متولى قوص و«الصعيد الأعلى»[1]... واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم «عز الدين حسام»[2]، وأشاروا عليه بعزل شاور، فامتنع، ثم ألحوا عليه فأجاب»[3].

وقد فسر المؤرخ «ابن الأثير» الأسباب التى دفعت الوزير طلائع بن رزيك إلى وصية ولده «العادل رزيك» بضرورة إبقاء «شاور السعدي» والى قوص والصعيد الأعلى فى منصبه، فأوضح أن ولاية الصعيد كانت تعد من أكبر الأعمال بعد الوزارة، ولما تولى شاور حكمها أظهر كفاءة كبيرة، ونجح فى استمالة كثير من أهلها إليه، فأصبح بذلك يمثل خطرا قائما يهدد الوزير طلائع بن رزيك، ولهذا ندم على تعيينه فى هذا المنصب المهم، وفكر فى

نجح شاور بمعاونة قوات الملك العادل نور الدين محمود ، في العودة مرة ثانية إلي الوزارة في الخلافة الفاطمية في مصر في عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م ، واستمرت وزارته حتى قتل في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٨١ ، ٨٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ، ٤٤٣ ـ ٤٤٤ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٤٥) .

(١) الصعيد الأعلى : ينقسم الصعيد في مصر إلي ثلاثة أقسام : الأول « الصعيد الأعلى » وهو يبدأ من « وحدة أسوان وآخره قرب أخميم » ، والثاني ، من « أخميم إلي البهنسا » و الثالث ، من « البهنسا إلي قرب الفسطاط » . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠٨) .

(٢) هو الأمير عز الدين أبو المهند حسام بن الأمير الأسد جلال الدين فضة : ابن أخت الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقيل عنه أنه لم يكن في مصر أفخم منه شأنا وأعظم سلطانا ، وكان من قواد الملك الصالح ، و خاض العديد من المعارك ، وعظم شأنه في عهد الوزير الملك العادل رزيك فكان مقدم عسكره ، واستولى علي تدبير كثير من أموره ، وكان من أشد الناس الذين شجعوه علي عزل شاور من ولايته بقوص ، ولما جاهر شاور بالعصيان بسبب ذلك ، خرج لقتال شاور عند القاهرة فتمكن شاور من هزيمته . (عمارة اليمني : النكت العصرية ، ج ١ ، ص ٥٤ ؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، ٢٥٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ .

عزله، ثم عدل عن ذلك، وعمل على استمالته بإبقائه فى منصبه، حتى لا يخرج عن طاعته، وقبل وفاة طلائع بن رزيك كان يَعُد تعيينه لشاور من الأخطاء التى ندم عليها، وذلك لمعرفته بمدى كفاءته، لذا أوصى ولده رزيك بعدم التعرض له، وتركه فى منصبه وقال له: أنا أقوى منك ولا أقدر على عزله[١].

ولهذا عندما خالف العادل وصية والده وعزل شاور وعين واليا آخر لقوص، وهو «الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة»[٢]، حشد شاور قواته وتمكن من هزيمة العادل. قال ابن أبى طى عن هذا الموضوع: **«وبلغ شاورا فجاهر بالعصيان، و جمع العربان وأهل الصعيد و {صار}[٣] إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك {تحت}[٤] الليل فضل الطريق وتاه فوق عند «إطفيح»[٥]، وثم بيوت عرب، فقبضوا عليه»**[٦].

---

(١) المصدر السابق . ج ٩ ، ص ٨١ . وانظر أيضا : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ، ٤٤٣ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ؛ اليافعي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١١ - ٣١٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٥ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣١٦.

(٣) في طبعة دار الجيل « : وزحفوا » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥) .

(٤) في طبعة دار الجيل : « نصف » . (المصدر نفسه ، ص ١٦٥) .

(٥) إطفيح : بالكسر في أوله ، بلد بالصعيد الأدنى ، وتقع علي شاطئ النيل الشرقي ، وفي عام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١ م أضيفت إطفيح إلي مديرية الجيزة وسميت مديرية الجيزة وأطفيح ، وفي عام ١٨٨٩ م حذف اسم إطفيح من المديرية وانقرض اسمها في عام ١٨٩٨ م من أسماء المراكز ، وأصبحت تابعة لمركز الصف بمديرية الجيزة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢١٨ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، القسم الثاني ، ج ٣ ، ص ٧ ، ٢٦) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٦ ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٨ .

وقد وقع العادل رزيك - كما أوضح بعض المؤرخين - فى أيدى «سليمان بن الفيض اللخمي»[١] - وكان من العرب المقيمين فى إطفيح - فقام بمراسلة شاور وأخبره بوجود رزيك لديه، فقبض شاور على العادل رزيك[٢].

وبهزيمة العادل رزيك انتهت فترة وزارته فى مصر، وفى الحقيقة لم تخل رواية ابن أبى طى عن فترة وزارته من بعض النقاط التى ميزت كتاباته بين مؤرخى الخلافة الفاطمية، وجعلت لكتاباته موقع الصدارة بينهم، ومن هذه النقاط ما ذكره عن دور «عز الدين حسام» فى تحريض العادل رزيك على عزل شاور من منصبه، كذلك ما أورده عن مكاتبة بعض الأمراء الموالين لرزيك شاور، مما كان له أبلغ الأثر على سقوط وزارته. وقد تناول هذه النقاط أيضا من المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى «النويري» وأورد مزيدا من التفاصيل حولها[٣].

---

(١) في رواية « ابن ظافر » هرب إلي « منيل بن النيص » . (أخبار الدول المنقطعة ، ص ١١٣) .

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٧ .

(٣) حيث أوضح موالاة بعض المقربين من رزيك إلي شاور ، وكان من بينهم صهر رزيك « سيف الدين حسين » ، الذي استماله شاور بالأموال الجمّة ، مما ساعد علي اقتراب شاور من دخول القاهرة . (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩) .

وزارة شاور الأولي

(المحرم - رمضان ٥٥٨هـ / ١١٦٣ م)

عرض ابن أبى طى ولاية شاور السعدى الوزارة فى الخلافة الفاطمية فى مصر عقب انتصار قواته على الوزير السابق الملك العادل رزيك فى المحرم عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م، كما أوضح موقف شاور من العادل رزيك بعد أن قام بالقبض عليه، وموقفه أيضا من «سليمان بن الفيض اللخمي» الذى أبلغه بوجود العادل لديه، فقال: «وحمل (رزيك) إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة وتم أمره[١]. ولما حصل رزيك عند شاور أكرمه، وصلب الذى أتى به، ونادى عليه هذا جزاء من لا {يراعى}[٢] الجميل، وكان للصالح إليه إحسان»[٣].

و كان رزيك قد لجأ إلي«سليمان بن الفيض اللخمي» بحكم ما كان بينه و بين والده من صداقة، حيث كان طلائع بن رزيك قد أسبغ على سليمان اللخمى نعم جمّة، ولكنه لم يعر لعلاقته السابقة مع والده أى اهتمام، وسلم رزيك إلى شاور، ومع هذا فلم يلق فعله هذا صدى كبيرا لدى شاور بل على العكس كان هذا الفعل سببا لهلاكه على يد طى بن شاور بعد ذلك[٤].

ثم أوضح ابن أبى طى تطور أحوال بنى رزيك، وبصفة خاصة أحوال «عز الدين

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول ولاية شاور الوزارة انظر . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٨١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٠ ؛ ابن خلدون : تاريخه، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٥٩) .

(٢) في طبعة دار الجيل : « يرعى » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٦ ، طبعة دار الكتب ١٩٩٨ م .

(٤) ابن ظافر : المصدر السابق ، ص ١١٣ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٠ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

حسام» ـ الذى كان وراء قرار رزيك بعزل شاور من ولاية قوص ـ وانفرد بتتبع أخبار عز الدين حسام فقال: «وتفرق آل رزيك فى البلاد، ونجا حسام الذى كان سبب هلاك بنى رزيك بأموال وصار إلى «حماة»[١] فأقام بها، واشترى القرى ولم يزل بها إلى أن مات، وكان فى خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردّوها عليه، ثم أراد «تقى الدين»[٢] أخذها منه فقال: من العجب أن الفرنجى يفى لى بردّها وتأخذها أنت منى فكف عنه»[٣].

وفى الحقيقة فان رواية ابن أبى طى هذه مختصرة للغاية، ولهذا لم نتمكن من التحقق من صدق روايته، فلم يذكر من هم الصليبيون الذين لجأ إليهم عز الدين حسام، ولم

يوضح من هو «تقى الدين» الذى أراد أخذ أمواله، وقد بحثنا فى تاريخ ولاة حماة، وكان «تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب» هو أول من تولاها بهذا الاسم فى الفترة التى هرب فيها إلى الشام.

ثم عرض ابن أبى طى أهم الأسباب التى أدت إلى سقوط وزارة شاور بعد عدة أشهر من قيامها، وأرجع ذلك إلى سوء علاقته هو وأولاده مع أهل مصر وإلى ظهور منافس جديد على الوزارة الفاطمية، وهو الأمير «ضرغام»[٤]. فقال: «و تمكن شاور وكان له ثلاثة أولاد:

---

(١) حَماةُ: تقع بين حمص وقِنَّسْرِين على ضفة نهر العاصي. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) هو الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: ابن أخي السلطان صلاح الدين، أنابه عنه صلاح الدين في ولاية مصر أثناء وجوده في الشام، وفي عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م ولاه صلاح الدين حماة، وظل واليا بها حتى وفاته في عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧٣ ـ ٧٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤١٦.

(٤) هو أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري: كان يتولى وظيفة «حاجب الباب»، وهي تعد ثاني مرتبة بعد الوزارة، ويقال لها «الوزارة الصغرى»، كما كان يرأس فرقة «الأمراء البرقية»، و تولى الوزارة في مصر بعد أن هزم الوزير شاور في رمضان عام ٥٥٨

«طيّ» و «الكامل» و«سليمان»، فتبسطوا على الناس وتعاظموا«فمجتهم»[١]الأنفس[٢]. و كان «ملهم» وأخوه «ضرغام» من «صنائع الصالح بن رزيك»[٣]، فلما {شاهدا}[٤] ميل الناس عن شاور بسبب أولاده، أخذا فى مراسلة رزيك بن الصالح وهو فى السجن والعمل له فى إعادته إلى الوزارة. واتصل ذلك بطى بن شاور، فدخل على أبيه وقال له: أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك، وقد شرعا فى أمر رزيك واستحلفا له جماعة من الأمراء،

ولا يمكن تلافى حالك إلا بقتل رزيك. {فقال له}[٥]: إن الصالح أولانى جميلا وبسببه حللت هذا المحل، فتركه ولده طى ودخل على رزيك فقتله فى سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته[٦]»[٧].

هـ/ ١١٦٣ م ، ثم تمكن شاور بعد عودته بالمدد العسكري من الشام من هزيمة ضرغام وقتله في عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م . وسنوضح تفاصيل ذلك في الصفحات القادمة (عمارة اليمني : النكت العصرية ، ص ٧٣ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ، ص ١٢٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٤ ؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ٣٣٨) .

(١) المَاجُّ من الناس : هو الذي لا يستطيع أن يُمْسك ريقه . (ابن منظور: لسان العرب ، ج ١٣ ، ص٢٧) .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن سوء حكم شاور وأولاده انظر : (ابن الأثير: الكامل ، ج ٩ ، ص ٨١ ؛ النويري : نهاية الأرب ،ج ٢٨ ، ص٣٣٠ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٢٥٩) .

(٣) حيث كان طلائع بن رزيك قد أسس فرقة « الأمراء البرقية » ، وعهد إلي الأمير ضرغام بن عامر بقيادتها . (ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٣٨) .

(٤) في طبعة دار الجيل : « شاهدوا » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥) .

(٥) في طبعة دار الجيل : « فقال له شاور» . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥) .

(٦) تطابقت رواية المقريزي مع ما أورده ابن أبي طي عن هذه الأحداث . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص٢٦١-٢٦٢) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٦ ـ ٤١٧ (طبعة دار الكتب) .

وهنا اختلف النويرى مع ابن أبى طى فيما أورده عن معرفة طى بن شاور بأمر العلاقة بين ضرغام والعادل رزيك، وذكر أن هذه العلاقة كانت بين العادل والكامل بن شاور[١].

ثم عرض ابن أبى طى تفاصيل سقوط وزارة شاور عقب هزيمة قواته أمام قوات ضرغام، كما عرض لتطور أحوال شاور وأولاده بعد هزيمتهم، فقال: «ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم، {فثارا}[٢] وأثارا من ستحلفاه من الأمراء، وزحفا بالعساكر إلى شاور فانهزم، وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان، فقتلهما، وأسر الكامل فأخذه «ملهم» واعتقله عنده وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم، وحفظ له جميلا كان قد فعله معه[٣]»[٤].

هكذا كانت الغلبة دائما فى الوزارة الفاطمية فى هذه الفترة للأقوى عسكريا، ولهذا اهتم «شاور السعدي» بعد هزيمته بإعداد المزيد من القوات التى تساعده فى العودة مرة ثانية إلى الوزارة، لهذا سافر إلى الملك العادل نور الدين محمود فى الشام طالبا إمداده ببعض القوات، وسنرى فيما بعد تطورات هذا الأمر.

وقد كانت كتابات ابن أبى طى عن فترة وزارة شاور الأولى (المحرم - رمضان ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م) من أهم الكتابات التى أرخت لتاريخ هذه الفترة، ففضلا عن تميز كتاباته عنها بكونها من أوائل الكتابات، فقد انفرد بذكر بعض النقاط التى لم يرد ذكرها فى كتب من لحقه من المؤرخين، ومن ذلك روايته عن تطور أحوال بنى رزيك بعد

ولاية شاور الوزارة، خاصة كتاباته عن تطور أحوال «عز الدين حسام» فى الشام.

---

(١) المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣١.

(٢) في طبعة « دار الجيل» : « فثاروا » . (أبو شامة : الروضتين، ج ١ ، ص ١٦٥) .

(٣) تطابقت هنا أيضا رواية المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء، انظر (اتعاظ الحنفا، ج ٣ ، ص٢٦١-٢٦٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٧ (طبعة دار الكتب) .

وقد ظهر لنا من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى مع بعض المؤرخين، اتفاق كتابات المؤرخ «المقريزي» (ت ٨٤٥ هـ) مع ابن أبى طى اتفاقا كبيرا، وذلك فى أسلوب عرضه، و فى ذكره لبعض الجمل التى تطابقت فى كثير من الأحيان مع العبارات التى أوردها ابن أبى طى عن المحاولة التى قام بها ضرغام لإعادة رزيك إلى الوزارة، و نتائج هذه المحاولة، وقد أشرنا إلى هذا فى هوامش تلك الصفحات التى ظهر بها هذا التوافق بين كتابات ابن أبى طى والمقريزى.

obeikandl.com

وزارة ضرغام

(رمضان ٥٥٨ ـ جمادى الآخرة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٦٤ م)

أصبح أمرا طبيعيا أن يتولى «ضرغام بن عامر» الوزارة الفاطمية عقب انتصاره على الوزير شاور، وقد أوضح ابن أبى طى كيف كان ضرغام حريصا على المحافظة على منصبه فى الوزارة، فمن ناحية اهتم بأمر الوزير السابق شاور، وداخله القلق من إمكانية تقديم الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٧٤ م) المساعدة العسكرية إليه، لذا قام بمراسلة نور الدين محمود لحثه على عدم تقديم أية مساعدة له.

وقد انفرد ابن أبى طى بكتابة تفاصيل هذا الموضوع، فقال: «واستقر أمر ضرغام فى الوزارة وخلع عليه ولقب بالملك المنصور. و حين استقر به الأمر أنشأ كتابا إلى نور الدين، على يد «علم الملك بن النحاس»، يظهر فيه الطاعة ويعرّض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول فى الظاهر وهو مع شاور فى الباطن وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق. فلما كان بظاهر «الكرك»[1] أخذه «فليب بن الرفيق الفرنجي»[2] وحصل على جميع ما كان معه وانهزم علم الملك بنفسه، وتوجه إلى الساحل وسار إلى مصر»[3].

وقد تناول هذا الموضوع باختصار بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى، واختلفوا معه حول ما تضمنه كتاب ضرغام إلى نور الدين محمود، فبينما أوضح ابن أبى طى أن

---

(١) الكَرَك : قلعة حصينة في طرف الشام بين إيلة ، وبحر القلزم ، وبيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٥٣) .

(٢) فليب بن الرفيق الفرنجي : ذكره « ابن الأثير » أثناء حصار نور الدين محمود الكرك في عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م ، وكان أحد الفرسان الذين حاربوا نور الدين محمود في هذه المعركة . (الباهر ، ص ١٤٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢، ص ٤١٨ .

ضرغام «عرّض خذلان شاور»، بمعنى حثه على رفض إمداده بالقوات، ذكر النويرى والمقريزى أنه طلب منه «القبض على شاور»[١].

وكما اهتم ضرغام بالمحافظة على منصبه من أية أخطار خارجية، حرص أيضا على ترتيب أموره الداخلية، والقضاء على بعض الأمراء الذين داخله الشك من ناحيتهم فقام بقتل الكثير من هؤلاء الأمراء، حتى تخلو له البلاد من أى منازع، وكان لا يدرى أن هذا الفعل كانت له فيما بعد أثار سيئة على منصبه فى الوزارة، وعلى استمرار حكم الخلافة الفاطمية فى مصر. وقد أشار أيضا «ابن الأثير» إلى هذا الموضوع[٢].

قال ابن أبى طى: «ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاورا وكان صار إلى الشام، فأخذ فى إعمال الحيلة عليهم، وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا ، ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم . وقيل أنه قتل منهم سبعين أميرا ، ويقال إنه جعلهم فى توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب فى هلاكه وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها، لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء[٣]»[٤].

ولهذا لم تلبث أن سقطت وزارة ضرغام عقب وصول شاور السعدى بالمدد العسكرى من الشام فى جمادى الآخرة عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، وسوف نوضح تفاصيل هذه المعركة فى الصفحات القادمة.

وفى واقع الأمر فقد تميزت رواية ابن أبى طى عن الوزير ضرغام وجهوده فى المحافظة

---

(١) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٢ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨١ . وانظر أيضا : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨، ص ٣٣٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤، ص ٧٧) .

(٣) اتفق المقريزي مع ابن أبي طي في هذه الرواية انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٧ .

على منصبه فى الوزارة، بما تضمنته من تفاصيل لم نجدها فى مؤلفات من عاصره من المؤرخين، حيث أشار ابن الأثير - وهو من أهم المؤرخين المعاصرين له - إلى خبر قيام ضرغام بقتل كبار الأمراء فى مصر، وأثره على زوال الخلافة الفاطمية، كما أورد «المقريزي» رواية ابن أبى طى عن هذا الموضوع بنفس أسلوبه.

وبهذا نكون قد انتهينا من عرض وتحليل كتابات ابن أبى طى الحلبى عن أحوال الوزارة الفاطمية فى مصر فى الفترة من عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م حتى عام ٥٥٩ / ١١٦٤ م. وكما رأينا فقد أضافت كتاباته الكثير من التفاصيل عن تاريخ هذه الفترة.

ومنذ وصول الوزير السابق شاور السعدى إلى الدولة الأتابكية فى الشام طالبا المدد العسكرى من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ليمكنه من العودة إلى منصبه فى الوزارة الفاطمية، دخل الصراع على الوزارة فى مصر مرحلة جديدة، حيث شهدت مصر فى الفترة من عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م حتى عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م صراعا خارجيا كبيرا على تولى الحكم بها، ودخلت فى هذا الصراع الدولة الأتابكية تحت ستار تقديم المعاونة إلى الوزير شاور، ودخلته أيضا مملكة بيت المقدس الصليبية خوفا من سيطرة الدولة الأتابكية على مصر حيث كانت هى الأخرى تطمع فى السيطرة عليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حفاظا على أمنها و سلامتها من هجمات الدولة الأتابكية عليها إذا ملكت مصر، ولهذا شهدت هذه الفترة وصول ثلاث حملات عسكرية من جهة الدولة الأتابكية، ومثلها من جهة مملكة بيت المقدس الصليبية، وانتهى هذا الصراع بفوز الدولة الأتابكية بمنصب الوزارة فى الخلافة الفاطمية، وبمعنى آخر أصبح لها الحكم الفعلى فى مصر.

وقد تناول ابن أبى طى أحداث هذه المرحلة، وانفرد فيها بالكثير من التفاصيل التى أضفت على كتاباته تميزا كبيرا، ووضعته فى مركز الصدارة بين أهم مؤرخى الخلافة الفاطمية.

وقد لاحظنا من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى عن هذه المرحلة بكتابات كثير من

المؤرخين، اتفاق المؤرخ الكبير «تقى الدين المقريزي» ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م، فى كتابه الذى خصصه لكتابة تاريخ الخلافة الفاطمية وهو: «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» مع نصوص روايات ابن أبى طى، وكان هذا الاتفاق فى بعض الأحيان اتفاقا حرفيا، وأحيانا أخرى كان المقريزى يتصرف فى روايته يضيف أو يختصر منها.

وهدفنا من هذه الإشارة ليس الإقلال من شأن المقريزى، لأنه لم يصرح بمصادر كتاباته فى هذا الكتاب، وإنما لتقييم كتابات ابن أبى طى، فاتفاق كتاباته مع كتابات المقريزى يضع ابن أبى طى فى مكانة مهمة بين مؤرخى الخلافة الفاطمية، و تكون لكتاباته السبق على كثير من مؤرخى الخلافة اللاحقين به.

حملة نور الدين محمود الأولي على مصر

٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م

أشرنا من قبل إلى سفر الوزير السابق شاور السعدى إلى نور الدين محمود فى الشام لطلب المدد العسكرى الذى يمكنه من استعادة منصبه فى الوزارة، وقد ذكر ابن أبى طى فى كتاباته وصفا تفصيليا مهما لأحداث وصول شاور إلى دمشق انفرد به فقال: «وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه. ولما وصل إلى «بُصري»[١] اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلقيه، وأنزله فى «جوسق»[٢] «الميدان الأخضر» وأحسن ضيافته وإكرامه»[٣].

ثم أوضح ابن أبى طى اللقاءات التى تمت بين شاور ورسل نور الدين محمود قبل لقائه به فقال: «ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين «ابن الصوفي» وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: أخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعذارنا فى التقصير فى حقه، وسلوه فيما قدم، وما حاجته، فإن كان ورد علينا مختارا للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم « بأربه وأوده»[٤]، ونكون عونا له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته، فخرج الجماعة إليه بالرسالة فشكر إحسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، فقال: «إذا لم يبيّت الرأى جاء فطيرا»[٥]. فعاد القوم إلى

---

(١) بُصري: من أعمال دمشق وعاصمة حَوران. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٤١).

(٢) جوسق: أي القصر. (الفيروزابادي: القاموس المحيط؛ ج ٣، ص ٢١١).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤١٧.

(٤) يقوم بأربه وأوده: أرَب: بمعني الحاجة. وآد عليه: عطف، وآده بمعنى حناه وعطفه. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ١٠٩، ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٥) إذا لم يبيت الرأي جاء فطيرا: بَيّتَ فلان رأيه إذا فكر فيه وخَمّره. الفَطير: وهو العجين الذي لم يختمر، و « كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فَطِير ». (المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٤٧، ج ١٠، ص ٢٨٨).

نور الدين وعرفوه ما دار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم، ففعلوا، وطلبوا الجواب، {فسكت وأطال أيضا}[١]. ثم قال: أن رأى نور الدين،أطال الله {بقاءه}[٢]، الاجتماع بى فله علوّ الرأي»[٣].

ثم وصف ابن أبى طى اللقاء بين شاور و نور الدين محمود، وإن كان لم يذكر أى شئ عن تفاصيل الحوار بينهما إلا أنه ختم روايته بموافقة نور الدين محمود على إمداد شاور بالقوات العسكرية، فقال: « فعرّفوا نور الدين بمقالته، فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر. وركب نور الدين من الغد فى وجوه دولته وخواص مملكته فى أحسن زى وأكمل شارة فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا فى وسط الميدان بالتحية فقط، و لم «يترجل»[٤] أحد منهما لصاحبه. ثم سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره، ثم انفصلا من هناك وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، و{أخذ}[٥] وقته ذلك فى جمع العساكر»[٦].

هكذا أوضح ابن أبى طى علاقة شاور مع نور الدين محمود خلال فترة إقامته فى دمشق، وقد ظهر لنا من خلال قراءتنا للعديد من المصادر الإسلامية، مدى تميز كتابات ابن أبى طى فى هذا الموضوع، لانفراده بين كثير من المؤرخين بذكر تفاصيله، وكان ابن الأثير قد أشار فقط إلى حسن ضيافة نور الدين محمود لشاور[٧]، وأورد «ابن كثير» جزءا من مقدمة

---

(١) في طبعة « دار الجيل » : « فسكت أيضا وأطال » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « بقاه» .(المصدر نفسه ، ص ١٦٥) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٧ ـ ٤١٨ (طبعة دار الكتب) .

(٤) تَرَجَّل : أي نزل عن دابته . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٥ ، ص ١٥٧) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « أخذ من » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥).

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٨ (طبعة دار الكتب) .

(٧) المصدر السابق ، ج ٩، ص ٨٤ . وانظر أيضا أبو شامة :المصدر السابق ، ج ١، ق ٢ ، ص ٣٣٢؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٤٤٤؛ المقريزي : المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٤.

روايته[١].

وبعد أن أوضح ابن أبى طى موافقة نور الدين محمود على إمداد شاور بالقوات وقيامه بجمع هذه القوات، استكمل فى بقية روايته الاستعدادات الأخرى التى اتخذها نور الدين محمود من أجل إرسال هذه الحملة إلى مصر، ومن ذلك الاتفاق مع القائد الذى سيقود هذه الحملة، وهو «أسد الدين شيركوه»، وكان يُعد - كما ذكر بعض المؤرخين - من أهم الأمراء فى دولة نور الدين محمود، ويعمل قائدا لقواته[٢].

قال ابن أبى طى: «وفى هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه

من إقطاعه من «الرحبة»[٣] وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك «بميمون نقيبته»[٤]، لأنه لم يرسله فى أمر إلا نجح، ولم «يولجه»[٥] فى مضيق إلا انفتح. ولما حضر أسد الدين إلى دمشق خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء فى أمر مصر وأمره بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذى يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه»[٦].

ثم أوضح ابن أبى طى الاتفاق الذى تم بين نور الدين محمود وشاور، وعرض من خلاله بعض الامتيازات التى وعد بها شاور نور الدين محمود فى مصر فى مقابل حصوله على

---

(١) قال: «خرج شاور ملتجئا إلي نور الدين محمود، وهو نازل بجوسق الميدان الأخضر، فأحسن ضيافته و أنزله بالجوسق المذكور». (البداية، ج ١٢، ص ٧٦٣).

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٤؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٣١؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٦.

(٣) وقيل أيضا استدعاه من إقطاعه «بحمص»، وقيل من «حلب». (ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٢٧٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٦٥).

(٤) ميمون نقيبته: أي مبارك النفس، وميمون الأمر: النجاح فيما يحاول. (الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٩٩).

(٥) أولجه: أي أدخله. (المصدر نفسه، ص ٧٦٠).

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤١٨.

هذه المساعدة، وسوف يستكمل ابن أبى طى فى رواية أخرى تفاصيل هذا الاتفاق سنوردها بعد قليل.

قال ابن أبى طى: «وكان شاور قد أطمع نور الدين فى أموال مصر ورغبه فى ملكها، وأنه إذا ملكها كان من قبله فيها»[١].

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن نور الدين محمود كان مترددا فى بداية الأمر فى قبول عرض شاور السابق، وفكر كثيرا - كما أوضح «ابن الأثير» - فى الموضوع برمته، فمن ناحية رغب فى قضاء حاجة شاور المستجير به، واستطلاع أحوال مصر، خاصة أنه كان يصل إليه ما يشير إلى ضعف قواتها واختلال أمرها، ومن ناحية أخرى كان يخشى من الهجمات الصليبية التى قد تواجهها الحملة فى طريقها من الشام إلى مصر، ثم استقر رأيه فى النهاية على إرسال الحملة[٢].

ثم عرض ابن أبى طى موقف شاور بعد علمه بقيادة أسد الدين شيركوه للحملة، فقال: «ولما بلغ شاورا استتباب أمر العسكر سأل عن المقدم عليه، فقيل له أسد الدين شيركوه، فلم يطب له ذلك،لأنه ظن أن التقدّمة تكون له، فلما {زُحم}[٣] بهذا القود، سقط فى يده و «فُتّ فى عضده»[٤]، ولم يجد بدا من المسير»[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤١٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٤؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٣٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣١٦؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٤؛ ج ٧، ص ١٤٥؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٨؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٤ - ٢٦٦؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٦٠.

(٣) في طبعة « دار الجيل » : « زوحم » . (أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١٦٦) .

(٤) فت في عضده : أي كسر ساعده، والساعد من المرفق إلي الكتف . (الرازي : مختار الصحاح، ص ٤٦٢، ٥١٤) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤١٨ - ٤١٩.

فخرجت الحملة فى طريقها إلى مصر، وقد وصف ابن أبى طى فى روايته وصفا دقيقا انفرد به للمكان الذى استقرت به الحملة بعد وصولها إلى مصر، فقال: «فخرج

(شاور) واجتمع بأسد الدين وسارا جميعا حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية، ونزلوا على تل فى «الحوف»[١] قريب من «بلبيس»[٢] يعرف «بتل بسطة»[٣]، وضربوا خيامهم هناك»[٤].

ثم تناول ابن أبى طى الاستعدادات التى اتخذها الوزير ضرغام عند علمه بوصول هذه الحملة، فقال: «ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر

الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم ؛ فأشار «شمس الخلافة محمد بن مختار»[٥] بأن

---

(١) الحَوْف : يوجد بمصر حوفان : الشرقي والغربي ، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط ، و يشتملان علي بلدان وقرى كثيرة . فيشتمل الحوف الشرقي علي ثمان كور ، أما الحوف الغربي فيشمل إحدى عشرة كور . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٥) .

(٢) بلبيس : بكسر الباءين وسكون اللام . وهي مدينة تبعد عن الفسطاط بنحو عشرة فراسخ ، وكانت بلبيس قاعدة ولاية الشرقية في العصر الحديث حتى عام ١٨٣٢ م ، ثم أصبحت قاعدة قسم بلبيس الذي أقيم بها . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٩ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١) .

(٣) تل بَسْطَه : يقع في الكورة الرابعة في الحوف الشرقي ، وصار في زمن القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) مدينة خراب تتبع إقليم الشرقية . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨١) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١، ق ٢ ، ص ٤١٩ (طبعة دار الكتب) .

(٥) هو شمس الخلافة موسي بن شمس الخلافة محمد بن مختار بن شمس الخلافة أسد : نشأ في أسرة كانت علي مقربة دائما من أولي الأمر بها ، فكان جده شمس الخلافة أسد واليا علي عسقلان من قبل الفاطميين ، وظل واليا عليها حتى قتل في عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م ، وقيل في عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . وبعد وفاته خلع الوزير الأفضل علي ولده « مختار » ولقب أيضا شمس الخلافة ، ثم تولي الإسكندرية في عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ ـ ١١٣٨ م . وكان ولده « محمد » من الأمراء المقربين لدي الوزراء في مصر ، فكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك (٥٤٩ ـ ٥٥٦ هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦١

تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية «بصدر»[١]، و{هي}[٢] على يومين من القاهرة، فإنهم لا يثبتون، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولمكان قلة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من «أيلة»[٣] مسيرة ثلاثة أيام، فلم يروا ذلك واختاروا أن يلقوهم على بلبيس. فأمر ضرغام الأمراء بالخروج، فخرجوا فى أحسن زى وأكمل عدّة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم {أخو}[٤] ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذى كان أسد الدين نازلا عليه»[٥].

وبعد أن اجتمعت قوات الفريقين، علق أسد الدين شيركوه على كثرة القوات التى انضمت إلى الوزير ضرغام، وانفرد ابن أبي طى بهذا التعليق فقال: «ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وانهم قد ملكوا عليهم الجهات وسدّوا {منافذ}[٦] الطرقات، قال لشاور: يا هذا، لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت أنه ليس بمصر عساكر، فجئنا فى هذه

م) يخصه بحضور مجلسه ، وأوفده الملك العادل رزيك بن طلائع (٥٥٦ ـ ٥٥٨ هـ/ ١١٦١ ـ ١١٦٣ م) رسولا عنه إلي أمير الحرمين . وانضم مع الوزير ضرغام (٥٥٨ ـ ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٦٤ م) في حربه مع شاور ، وبعد انتصار شاور وتوليه الوزارة (٥٥٩ ـ ٥٦٤ هـ/ ١١٦٤ ـ ١١٦٩ م) كان من الأمراء المقربين لديه ، وشارك في كثير من الأحداث التي سنوردها عن ابن أبي طي في فصل الخلافة الفاطمية ، وبعد ولاية صلاح الدين الوزارة (٥٦٤ ـ ٥٦٧ هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٧١ م) أناب عن أخيه الملك تورنشاه في حكم « قوص » (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٥٠ ـ ٥١ ، ١٦٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ ؛ المقفي ، ج ٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٣) .

(١) صدر : قلعة خراب بين القاهرة وأيلة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٩٧) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « وهو » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٦) .

(٣) أيلة : بالفتح ، مدينة علي ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ، وتعتبر آخر الشام وأول الحجاز ، وهي تعرف اليوم باسم العقبة ، وتقع في شمال خليج العقبة بالبحر الأحمر ، وتتبع إمارة شرق الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، القسم الأول ، ص ١٣٦) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « أخوا » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٦) .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ٤١٩ (طبعة دار الكتب) .

(٦) في طبعة « دار الجيل » : « منافذا » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٦) .

«الشرذمة»[١] ! فقال له شاور: لا يهولنك ما تشاهد من كثرة الجموع فأكثرها «الحاكة»[٢] والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس و «كلبت»[٣] الحرب ! وأما الأمراء فإن كتبهم عندى وعهودهم معى وسترى ذلك إذا لقيناهم[٤]»[٥].

ثم انفرد ابن أبى طى بوصف أحداث المعركة بين الفريقين، والمخطط الذى وضعه شاور لكسب المعركة قائلا: «ثم قال (شاور): أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد{للوثوب}[٦]، ففعل، ونهاهم شاور عن القتال. ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمى النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول، وجلسوا فى الظل. فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما. وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ، فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكّن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا[٧]»[٨].

---

(١) كان قوام الحملة التي أرسلها نور الدين محمود بقيادة شيركوه « ألف فارس » . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦٦) .

(٢) الحاكّةُ : السِّنّ لأنها تحك صاحبتها أو تَحُك ما تأكله ، ورجل أحَك أي لا حاكّة في فمه ، وفي ذلك إشارة إلي أن المشتركين في الحرب من جانب ضرغام كانوا من الضعفاء . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٢٦٨) .

(٣) كلبت الحرب : أي اشتدت ، ولفظ كلبت من الكلب الذي اشتد غضبه . (الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٥٣) .

(٤) تطابقت رواية المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء تطابقا حرفيا . انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦٧) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٩ (طبعة دار الكتب) .

(٦) في طبعة « دار الجيل » : « والركوب » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٦) .

(٧) تطابقت رواية المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء أيضا . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٢٦٧) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

وبهذا نجحت حملة أسد الدين شيركوه فى هزيمة قوات الوزير ضرغام فى أولى المعارك بينهم، وقامت بعد ذلك بتتبع فلولهم حتى القاهرة. قال ابن أبى طى: «و ساق أسد الدين وشاور فى إثر الناس، ونزلوا على القاهرة و«قاتلوها أياما»[١]. وراسل شاور العاضد فى إصلاح الحال وأن يأذن له فى الدخول إلى القاهرة، فأذن له[٢]»[٣].

وكان أمرا طبيعيا بعد كل الانتصارات التى حققتها قوات الحملة أن يأذن العاضد لشاور بدخول القاهرة، حيث كان هذا أقصى ما يمكن أن يقدمه الخليفة العاضد دائما.وهو مباركة خطى المنتصر، وقد حاول الوزير ضرغام بعد هزيمته أن يستجدى عطف الخليفة العاضد ليقدم له المساعدة، ولكن ذهب صراخه هباء.

قال ابن أبى طى عن تلك الأحداث: «وكان ضرغام صار إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمنى لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد. فذهب على وجهه منهزما وخرج من «باب زويلة»[٤] والعامة تلعنه وتصيح عليه، فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله، فقال له ضرغام: أوصلنى إلى أسد الدين ولك مناك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه، ونزل إليه و احتز رأسه وحمله إلى أسد الدين وأعلمه بما جرى بينهما، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور[٥]»[٦].

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول تفاصيل القتال هنا انظر . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ - ٢٧٠) .

(٢) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء أيضا . انظر (المصدر نفسه ، ص ٢٧٠) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٤) باب زويلة : كان عندما خطط القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين ، فلما دخل الخليفة « المعز لدين الله » القاهرة دخل من أحدهما ، فصار الناس يدخلون منه وهجروا الآخر ، وفي عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بني أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) باب زويلة الكبير . (المقريزي : الخطط ، ج ١، ص ٣٨٠) .

(٥) اتفق المقريزي مع ابن أبي طي في هذا الجزء انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٠) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ .

وبهذا صار منصب الوزارة مهيئا لاستقبال الوزير شاور مرة ثانية، فدخل القاهرة وقام باتمام بعض الأمور قبل أن يتولى مهام منصبه. قال ابن أبى طى: «ودخل شاور القاهرة، وقتل «ملهما» أخا ضرغام عند «بركة الفيل»[١] وخرج ابنه الكامل من

دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وخرج معه «القاضى الفاضل»[٢]، وكان أيضا معتقلا فيها معه[٣]»[٤].

هكذا نجحت الحملة التى أرسلها نور الدين محمود بقيادة أسد الدين شيركوه فى

---

(١) بركة الفيل : تقع بين الفسطاط والقاهرة ، ولما خطط القائد جوهر القاهرة كانت تقع في اتجاهها ، و لم تكن بركة بها ماء راكد ، وإنما كانت أرض زراعية يغمرها ماء النيل وتزرع فيها أصناف شتوية ، وسميت بالفيل لأن الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون كان مغرما باقتناء الحيوانات ومنها الفيلة ، وكانت دار الفيلة تقع علي حافة البركة (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، ق ١ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣) .

(٢) هو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين البيساني : ولد في عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م بعسقلان ، وكان والده القاضي الأشرف ينوب في حكم « بيسان » ، وجاء هو وولده إلي مصر في عهد الخليفة الظافر بأمر الله (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م) . وبعد وفاة والده بالقاهرة في عام ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م ، توجه إلي الإسكندرية وتعرف علي القاضي بها ، وكان يكتب له مراسلاته إلي القاهرة ، وكان خطه في غاية البلاغة ، فاستخدمه الخليفة في ديوان الإنشاء ، ثم استخدمه الوزير الملك العادل رزيك بن طلائع في ديوان الجيش ، ويعتبر « عمارة اليمني » قرار رزيك باستخدامه في هذا الديوان من أفضل المحاسن التي تحسب لرزيك . ويذكر المقريزي أنه كان يلقب بالقاضي الأسعد ؛ فلما اعتقل مع الكامل ابن شاور وقامت بينهما صداقة ، لقبه شاور بعد الإفراج عنهما بالقاضي الفاضل ، ووزر القاضي الفاضل للسلطان صلاح الدين ، وبعد وفاته استمر مع ولده « العزيز عثمان » ، ومن بعده في عهد ولده الملك المنصور ، وتوفي بالقاهرة في عام ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م . (عمارة اليمني : النكت العصرية ، ص٥٣ ـ ٥٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٥٨ ـ ١٦٢ ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٢) .

(٣) تطابقت رواية المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ .

هزيمة الوزير ضرغام وإعادة شاور إلى منصبه فى الوزارة. وقد احتلت كتابات ابن أبى طى عن أحداث هذا القسم من الحملة موقع الصدارة بين كتابات الكثير من المؤرخين، لما انفردت به من معلومات مهمة بدءا من إعداد الحملة وموقف شاور من قيادة شيركوه للحملة حتى إشارته المهمة عن القاضى الفاضل، فى حين لم تتعدى كتابات معظم المؤرخين عن أحداث هذا القسم من الحملة بضعة أسطر، تناولوا فيها باختصار شديد وصول الحملة بقيادة شيركوه إلى بلبيس، واشتباكهم مع ناصر الدين أخى ضرغام، ثم هزيمة ناصر الدين ودخول قوات الحملة القاهرة، و مقتل ضرغام عند مشهد السيدة

نفيسة فى أواخر جمادى الآخرة من السنة[1].

كذلك ظهر واضحا فى خلال أحداث هذا القسم من الحملة مدى الاتفاق بين كتابات المؤرخ الكبير المقريزى وابن أبى طى، مما يؤكد أن كتابات ابن أبى طى كانت أساسا مهما اعتمد عليه المقريزى، وقد أشرنا فى هوامش الصفحات السابقة إلى مدى التوافق بين كتاباتهما.

ثم واصل ابن أبى طى فى كتاباته بقية أحداث حملة نور الدين محمود الأولى فى مصر بعد استقرار شاور السعدى فى الوزارة، وتناول خلال ذلك العلاقة بين أسد الدين شيركوه وشاور، فأوضح أن هذه العلاقة بدأت تتحول من علاقة أساسها الود والتحالف إلى العداء، وتطور الأمر إلى أن دخل الطرفين فى قتال، واستنجد شاور فى هذا الوقت بمملكة بيت المقدس الصليبية لتقف معه لمواجهة حملة نور الدين محمود فى مصر.

وكان الخلاف قد نشأ بين أسد الدين شيركوه و شاور بعد رفض شاور تنفيذ الاتفاق

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٢ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤١ ؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦١ .

الذى كان أبرمه مع نور الدين محمود فى الشام، فى مقابل إمداده بالقوات التى تساعده على تولى الوزارة فى مصر، وقد أشار المؤرخ ابن الأثير إلى هذا الخلاف[١]، وانفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيله قائلا: «واستقام أمر شاور فى الوزارة، وأقام أسد الدين على «المقسم» ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا فى الخيم وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن فى أمن {الله تعالى و دعته[٢]}[٣]»[٤].

ثم تناول ابن أبى طى موقف شيركوه بعد أن عرض عليه شاور هذا المبلغ وأشار فى معرض مراسلات شيركوه مع شاور إلى نصوص الاتفاق بين نور الدين محمود وشاور، واتفق ابن أبى طى فى ذكر بنود هذا الاتفاق مع المؤرخ «ابن الأثير»[٥]، كما أضاف ابن أبى طى أحد البنود الأخرى ويتعلق بنصيب الخليفة الفاطمى من هذا الاتفاق، فقال:

«فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه: إن نور الدين أوصانى عند انفصالى عنه، إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث «مغل»[٦] البلاد والثلث الثانى لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه فى مصالحه[٧]»[٨].

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص٣١٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ .

(٢) في طبعة « دار الجيل» : « الله وفي دعته » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٦).

(٣) اتفق المقريزي اتفاقا كبيرا مع ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٣) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ (طبعة دار الكتب) .

(٥) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٤ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٦ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٤٤٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤١ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٤؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥، ص ٣٤٦ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٦) المُمْغَل : الأرض كثيرة النبت . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ١٥٣) .

(٧) تطابقت رواية المقريزي مع كتابات ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ (طبعة دار الكتب) .

ثم تناول ابن أبى طى المراسلات التى دارت بين شاور وشيركوه بشأن تنفيذ هذا الاتفاق، وانفرد ابن أبى طى بين كثير من المؤرخين بتوضيح هذه المراسلات، فقال: «فقال شاور: أنا ما قررت شيئا مما تقول، أنا طلبت نجدة من نور الدين فإذا انقضى شغلى عادوا إلى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا، وأنا {أتصرف}[1] مع نور الدين. فقال أسد الدين: لا يمكننى مخالفة نور الدين ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره[2]»[3].

وعندئذ وصلت العلاقات بين أسد الدين شيركوه و شاور إلى طريق مغلق لإصرار كل منهما على موقفه، فقاما بأخذ الاستعدادات للحرب، فأرسل شيركوه - كما ذكر «ابن الأثير» - نوابه إلى بلدة بلبيس، وتمكنوا من السيطرة عليها[4]، كما جعل منها حصنا جمع فيه كل ما يحتاجه وقت الحصار. وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل ذلك فقال: «فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة، وأخذ فى الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضا، وسير «صلاح الدين»[5] فى قطعة من الجيش إلى بلبيس، لجمع الغلال والأتبان والأحطاب وما

(١) في طبعة « دار الجيل » : « انفصل ». (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٦) .

(٢) تطابقت هنا أيضا رواية المقريزي مع ابن أبي طي انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ (طبعة دار الكتب) .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٥ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣١٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٦٣ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٦ .

(٥) هو أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي الملقب بالملك الناصر صلاح الدين : ولد بقلعة تكريت في عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٨م ، قضي مرحلة الطفولة في بعلبك حيث كان والده واليا عليها منذ عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩م ، ولم تسجل المصادر الإسلامية شيئا علي هذه الفترة المبكرة من حياته ، ومن المرجح كما تقول بعض المراجع الحديثة أنه قد لاقى في هذه الفترة الاهتمام و الرعاية بوصفه ابن حاكم المدينة ، وتلقي ما يتلقاه الطفل العربي المسلم من العلوم الإسلامية . وفي عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م وطبقا لرواية ابن أبي طي - والتي سنوضحها في فصل العلاقة بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية - انتقل صلاح الدين من بعلبك إلي حلب وعمل في خدمة نور الدين محمود ، ومنذ ذلك الوقت بدأ تدريبه العسكري ، وأظهر صلاح الدين تفوقا فولاه نور الدين الشرطة في دمشق في عام ٥٥٠ هـ /

تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك فى بلبيس ذخيرة وأخذ فى قتال القاهرة[1]»[2].

هكذا استعد أسد الدين شيركوه لمواجهة شاور، أما بالنسبة لشاور فقد قام - كما ذكر ابن الأثير - بمراسلة مملكة بيت المقدس الصليبية لإعانته بالقوات فى حربه مع شيركوه واهتم شاور فى كتابه إلى المملكة بإبراز خطر وقوع مصر فى أيدى قوات نور الدين

محمود على مصالح المملكة وأمنها[3]. وقد اتفق ابن أبى طى مع ابن الأثير فى المعنى العام لروايته، فقال: «وكاتب شاور ملك الفرنج «مُرّى»[4] يستنجده ويقول له: إن شيركوه

١١٥٥ م . ثم شارك في كثير من المعارك في جيش نور الدين محمود ، ففي عام ٥٥٩ هـ / ١١٥٤ م شارك في حصار حارم و في حملات نور الدين علي مصر بقيادة عمه أسد الدين شيركوه ، وتولي الوزارة في مصر وتطورت أحواله ، وهذا ما سنوضحه في الفصول القادمة (ابن الأثير: الباهر ، ص ١٢٦؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥١، ٢١٠؛ أحمد بيلي : حياة صلاح الدين ، ص ٣٦ ، ٤٠ - ٤١؛ الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٢٣ - ٢٤؛ سيدة كاشف : صلاح الدين ، ص ٢٥ - ٣١) .

(١) اتفقت كتابات المقريزي اتفاقا كبيرا مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٤) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٥ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٦٣ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٧ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٤) هو الملك عموري الأول : تولى عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه الملك بلدوين الثالث الذي توفي في شهر فبراير عام ١١٦٢ م / ٥٥٨ هـ ، حيث لم يكن بلدوين الثالث قد أنجب ، لذا تولي أخوه الوحيد « عموري » - كونت « يافا و عسقلان » - عرش المملكة ، وكان في السابعة والعشرين من عمره ، وامتدت فترة حكمه إحدى عشر سنة وخمسة أشهر ، وتوفي في عام ١١٧٤ م / ٥٦٩ هـ .(وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٧ ، ١٦١ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٨٣ ، ٥٨٥ - ٥٨٦) .

طلع معى نجدة على ضرغام، فلما حصلوا فى البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش و لا قرار[١]»[٢].

ثم تناول ابن أبى طى نص الاتفاق الذى تم بين شاور والمملكة، وانفرد بين كثير من المؤرخين بذكره، فقال: «وضمن له فى كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار و قرر شيئا «لقضيم»[٣] دوابهم، وشيئا «لاسبتاريته[٤]»، فخرج مرّى

من «عسقلان»[٥] فى جموعه إلي«فاقوس»[٦] فى سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار[٧]»[٨].

وقد علم أسد الدين شيركوه بقرب وصول الحملة الصليبية، فاتجه بقواته - كما ذكر ابن

---

(١) اتفق المقريزي اتفاقا كبيرا مع رواية ابن أبي طي عن استنجاد شاور بقوات مملكة بيت المقدس . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ .

(٣) قضيم : أي شعير الدابة . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٥٦٦) .

(٤) الإسبتارية : ترجع نشأة هيئة الاسبتارية إلي ما قبل قيام الحروب الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة « أمالفي » جميعة خيرية في بيمارستان أو مستشفى قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم Hospitallers التي حرفت بالعربية إلي اسبتارية ، ثم صاروا يتبعون البابا في روما تبعية مباشرة ، وعند وصول الصليبيين إلي بيت المقدس وحصارهم لها قاموا - بحكم درايتهم بأحوال البلاد - بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين . ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تتبلور ، وأصبح لها كيان مستقل ، و دور فعال في محاربة المسلمين . (سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٩٣) .

(٥) عَسْقَلانُ : مدينة بالشام من أعمال فلسطين . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢٢) .

(٦) فاقوس : تقع في حوف مصر الشرقي ، وهي الآن قاعدة مركز فاقوس بمديرية الشرقية. (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٣٢؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج١، ص ١١٦) .

(٧) تطابقت كتابات المقريزي عن الاتفاق بين شاور ومملكة بيت المقدس مع رواية ابن ٰبي طي . انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ .

الأثير - إلى بلبيس[١]، وانفرد ابن أبى طى هنا بتوضيح مساندة قبيلة «كنانة»[٢] شيركوه فى بلبيس، فقال: «ولما تحقق أسد لدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية[٣]»[٤].

وعندئذ اتجهت قوات شاور والحملة الصليبية إلى بلبيس وقاموا بحصار أسد الدين شيركوه هناك، وقد اتفق ابن أبى طى فى روايته عن هذا الحصار مع «ابن الأثير»، ولكنه لم يكن دقيقا فى تحديد الفترة التى تعرض فيها شيركوه للحصار حيث اتفق معظم المؤرخين ومن بينهم «المقريزي» - والذى كان قد اتفق مع ابن أبى طى فى معظم

رواياته - على أنها كانت ثلاثة أشهر[٥]، بينما ذكر ابن أبى طى أنها كانت لمدة ثمانية أشهر، فقال: «وخرج شاور فى عساكر مصر واجتمع بالفرنج وجاء حتى خيم على بلبيس، وأحاط بها محاصرا لأسد الدين، يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٥ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٠ ؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣٤ .

(٢) كنانة : قبيلة عربية كبيرة، كانت مضاربها عند بدء الإسلام في المنطقة حول مكة . وتستمد كنانة أهميتها من أن قبيلة قريش كانت تتبعها والتي كان منها النبي (صلي الله عليه وسلم) . وكانت كنانة من القبائل العربية التي جاءت إلي مصر وقت الفتح الإسلامي، وبدأت تستقر في مصر منذ ذلك الوقت، وأقامت في منطقة « الأشمونين »، ومنذ منتصف القرن الرابع الهجري، شهدت مصر هجرة واسعة لقبيلة كنانة من الحجاز وأقامت في الدلتا و الصعيد بمصر . (عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر، ص ٦٦ - ٦٧) .

(٣) اتفق المقريزي هنا أيضا مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر . (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٧)

(٤) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢١ .

(٥) المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٥ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٠ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١ ؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣٤ ؛ المقريزي : المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٧ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٧ ؛ الحنبلي : المصدر السابق، ص ٦٢ .

أشهر[١]»[٢].

وفى خلال الفترة التى تعرضت فيها حملة نور الدين محمود للحصار فى بلبيس، قام نور الدين محمود بمهاجمة بعض المدن الصليبية فى الشام، لخلو المنطقة من كبار القادة الصليبيين لانضمامهم إلى قوات الحملة فى مصر، كما كان دافعه أيضا لتلك الهجمات هو إجبار الحملة الصليبية على الخروج من مصر للحفاظ على أملاكها فى الشام، فتمكنت قواته من فتح حصن حارم و بانياس، ثم قام نور الدين محمود بالعمل على إعلام الحملة الصليبية فى مصر بأخبار هزائمهم فى الشام، وتمكن من إعلامهم بذلك، فقال المؤرخ الصليبى «وليم الصوري» بعد ذكره لعودة الملك عمورى إلى الشام: «أنه علم بنبأ الأحداث المحزنة التى جرت فى المملكة، وعلى الرغم من أن بعض هذه الأخبار كانت قد بلغته من قبل إلا أنه أصغى إلى بيان مفصل عن تلك النكبات»[٣]، كما أشار أيضا «ابن الأثير» إلى معرفة الحملة الصليبية فى مصر بأخبار هزائمها فى الشام[٤].

وقد انفرد ابن أبى طى بين كثير من المؤرخين بتوضيح الخطة التى وضعها نور الدين محمود من أجل إرسال بعض الآثار الصليبية التى أخذها من البلاد التى فتحها إلى بلبيس، فقال: «وجمع (نور الدين محمود) أعلام الفرنج و«شعافهم»[٥] وجعلها فى

(١) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ .

(٣) الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٥ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢١ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٧٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٠ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣، ص ٤١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٤ ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣، ص ٢٧٧ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٥) شِعَاف : جمع شَعَفة ، أي شعور رءوسهم (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٧ ، ص ١٣٩).

«عيبة» وسلمها إلى «نجاب»[١]، وقال له: أريد أن تعمل الحيلة فى الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها {فى أسواق}[٢] بلبيس فإن ذلك مما يفت فى أعضاد الكفار ويدخل الوهن عليهم. ففعل ذلك»[٣].

وقد آتت خطة نور الدين محمود ثمارها، حيث علم الملك عمورى بما حدث فى الشام فطلب من شاور الإذن فى الانصراف، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر موقف شاور من هذا فقال: « فلما رأى الفرنج الأعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم ؛ وسألوا {شاورا الإذن فى الانفصال[٤]}. فانزعج شاور لذلك، وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التمهل أياما ؛ وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين»[٥].

وعندئذ تم عقد الصلح بين أسد الدين شيركوه و شاور، واشتملت بنود الصلح كما ذكر «ابن الأثير» على أن يسلم شيركوه البلاد التى كانت قد خضعت له إلى شاور[٦]، كما ذكر «وليم الصورى» أنهما اتفقا أيضا على السماح بمغادرة أسد الدين شيركوه إلي

الشام بجميع قواته دون أية مضايقة[٧]، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر بعض التفاصيل

---

(١) نجاب : وهو رسول علي ظهر فرس سريع . والنجيب من الإبل هو القوي منها الخفيف السريع . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ٤١ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٢٥٠ ، هامش (١)) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « علي أسوار » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ (طبعة دار الكتب) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « وسألوا شاور الإذن والانفصال » (المصدر نفسه ، ج ١، ص ١٦٧) .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ (طبعة دار الكتب) .

(٦) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٥ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٠ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

الأخرى التى تتعلق بدور الأمير «شمس الخلافة محمد بن مختار» فى إتمام الصلح فقال

: «{وتكفل إتمام الصلح له}[١] الأمير «شمس الخلافة» فأنفذه إليه ؛ فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى[٢]»[٣].

وقد أشار ابن أبى طى بعد ذلك فى كتاباته إلى أحد المراسلات التى أرسلها شاور إلى أسد الدين شيركوه أثناء حصاره له فى بلبيس، وانفرد ابن أبى طى بذكر هذه الرسالة، وفيها قام شاور بشرح الأسباب التى جعلته يعمل على منع الحملة الصليبية من الهجوم على أسد الدين شيركوه فى بلبيس، فقال: «و حكى أن شاورا أرسل إلى أسد الدين، وهو محصور ببلبيس، يقول له: اعلم أننى أبقيت عليك ولم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك ؛ وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أنى ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوى الفرنج عليهم. والثانى أنى خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها، وقالوا هذه لنا لأنا فتحناها بسيوفنا ؛ وما من يوم كان يمضى بمصر إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف»[٤].

وفى رأينا تعد رواية ابن أبى طى عن رسالة شاور إلى أسد الدين شيركوه ذات أهمية كبيرة، ويبدو لنا أن شاورا كان يهدف من هذه الرسالة أن يدخل الضعف فى نفس شيركوه، ويبين له أن نجاح قواته فى الصمود أمام القوات المحاصرة له لمدة طويلة وعدم تمكن هذه القوات من اقتحام بلبيس، لا يرجع إلى قوة شيركوه وتحمله لهذا الحصار بقدر ما يرجع إلى دور شاور فى منع الحملة الصليبية من اقتحام بلبيس هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليرغمه على قبول عقد الصلح، لأنه لا طاقة له مع قوات الحملة الصليبية إذا قرر الملك

---

(١) فى طبعة « دار الجيل » : « وتكفل له إتمام الصلح » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧) .

(٢) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن شروط عقد الصلح بين شاور و شيركوه . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٢٣ .

الهجوم على بلبيس.

على أية حال وقّع شيركوه عقد الصلح - كما ذكرنا سابقا - وغادرت الحملة الصليبية وحملة شيركوه مصر، وقد تعرض شيركوه لبعض الصعوبات أثناء عودته، وقد أشار إليها «ابن الأثير» فقال: «وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق من الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا، فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق»[١].

وقد انفرد ابن أبى طى فى روايته بذكر تفاصيل الصعوبات التى واجهها شيركوه فى

طريقه إلى الشام من قبل «البرنس أرناط»[٢]، فقال: «وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل. وسار أسد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك و«الشوبك»[٣] تأوّل ليمينه التى حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفت أنى ما ألحق أسد الدين ولا عسكره فى البر، وأنا أريد أن ألحقه فى البحر. وركب فى البحر وصار فى يوم واحد إلى عسقلان وخرج منها إلى

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٥. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج، ص ١٤١.

(٢) هو رينولد دي شاتيون Reynauld De Chatllion: فارس فرنسي جاء إلي الشام في أعقاب الحملة الصليبية الثانية (١١٤٨ م/ ٥٤٢ - ٥٤٣ هـ) وعمل في جيش الملك بلدوين الثالث. وبعد مقتل الأمير «ريموند دي بواتييه» أمير انطاكية في عام ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م تزوج من أرملته «كونستانس». ثم وقع في أسر نور الدين محمود في عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، وظل أسيرا في حلب لمدة ستة عشر عاما، ثم أفرج عنه في عام ١١٧٦ م/ ٥٧٢ هـ، فتزوج من وريثة إقطاع بلاد ما وراء الأردن، وصار له بذلك حكم الأردن والكرك والشوبك، وشارك في معركة حطين في عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م، وأسره صلاح الدين و قتله بسيفه. (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٥٩، ٤٣٩ - ٤٤٠، ج ٤، ٢٩٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٥، ١٧٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٩٩، ج ٣، ص ٣٤؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٧٧، ٦٥٤ - ٦٥٥، ٦٥٧؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٢٧، ج ٢، ص ٦٠٤، ٦٣٦؛ سيدة كاشف: صلاح الدين، ص ٧٢).

(٣) الشَّوْبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان و أيلة و القلزم قرب الكرك. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٠).

الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقبا خروج أسد الدين من البرية ليوقع به. وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين فسلك طريقا من خلف المكان الذى كان فيه أرناط، شق إلى «الغور»[١] وخرج من البلقاء «[٢] وسلمه الله تعالي»[٣].

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن ابن أبى طى لم يكن دقيقا فى كتابته لاسم

الشخص الذى كان يستعد لمهاجمة شيركوه، حيث كان «البرنس أرناط» أثناء تلك الأحداث مقبوضا عليه فى قلعة حلب، وكان قد وقع فى أسر «مجد الدين ابن الداية» ـ نائب نور الدين محمود فى حلب ـ فى عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، أى قبل هذه الأحداث بنحو أربع سنوات، وقد ظل أرناط أسيرا فى حلب حتى أفرج عنه فى عام ١١٧٦ م/ ٥٧٢ هـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن أرناط قد تولى بعد حصنى الكرك والشوبك فى فترة خروج شيركوه من مصر، حيث أنه بعد الإفراج عنه فى عام ١١٧٦ م/ ٥٧٢ هـ تزوج من وريثة بلاد الأردن والكرك والشوبك، وصار إليه منذ ذلك الوقت الحكم فى تلك المناطق[٤].

ومن الملاحظ أيضا أن «المقريزي» ذكر نفس رواية ابن أبى طى فى هذا الموضوع، ووقع أيضا فى نفس هذا الخطأ[٥].

وهذا الخطأ الذى وقع فيه ابن أبى طى لا ينفى روايته كلها، حيث أكد ابن الأثير هذا الخطر الصليبى الذى كاد يتعرض له شيركوه ـ كما ذكرنا من قبل ـ ولكن كان الشخص فى

---

(١) الغَوْر : وهو منخفض من الأرض يقع بين بيت المقدس ودمشق ، ولذلك سمي « الغور » ، وتقع علي طرفه بحيرة طبرية . (المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١٧) .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، و قصبتها عَمان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٨٩) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ .

(٤) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ، ج ٤ ، ص ١٩٦ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٤ ؛ رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ ، ٦٥٤ ـ ٦٥٥ ، ٦٥٧ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ـ ٢٧٩ .

هذه الرواية شخصا آخر غير «البرنس أرناط».

على أية حال وصل أسد الدين شيركوه سالما إلى دمشق، واجتمع مع نور الدين محمود، وأطلعه على نتائج حملته على مصر، ويذكر «ابن الأثير» أنه كثر حديثه معه عنها[١]، وقد أضاف ابن أبى طى بعض النقاط الأخرى التى تتعلق بنتائج حملة شيركوه، فقال: «ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوّقه إلى ملكها فرغب فيها نور الدين[٢] وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال[٣]»[٤].

وبعد خروج حملة نور الدين محمود من مصر، اهتم الوزير شاور بتتبع كل من عاون شيركوه فى حربه معه، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر ذلك، فقال: «وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له همة إلا تتبع من علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة. وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم «خشترين الكردي»[٥] وأقطعه «شطنوف»[٦] وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرّد آخرين[٧]»[٨].

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٥. وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) اتفق النويري مع بعض ما ذكره ابن أبي طي عن نتائج الحملة، وذلك فيما يتعلق بترغيب شيركوه نور الدين محمود في مصر. انظر. (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٣٥).

(٣) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر. (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٩).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٤.

(٥) هو عز الدين خشترين الكردي: ولاه صلاح الدين في عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م «حصن بُزاعة». (المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٥ (رواية ابن أبي طي)).

(٦) شَطنَوف: تقع نواحي الغربية، وعندها يفترق النيل: شرقا إلي تنيس وغربا إلي رشيد. وهي من القرى القديمة التابعة الآن لمركز أشمون بمديرية المنوفية. (ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص ٣٤٤؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، قسم ٢، ج ٢، ص ١٦٢).

(٧) تطابقت كتابات المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٩).

(٨) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٤.

وبهذا نكون قد انتهينا من توضيح كتابات ابن أبى طى الحلبى عن أولى حملات نور الدين محمود على مصر، وكما رأينا فقد أضافت كتاباته عن بعض أحداث الحملة المزيد من التفاصيل التى انفرد بذكرها بين كثير من المؤرخين، ومع ذلك فيؤخذ على كتابات ابن أبى طى بعض الأخطاء، التى لم يتحرى الدقة فى كتابتها.

كما اتضح لنا من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى عن أحداث هذه الحملة مع كثير من المؤرخين مدى التوافق بين كتابات ابن أبى طى و المؤرخ الكبير «المقريزي» وهذا يبين اعتماد المقريزى على كتابات ابن أبى طى، وأكد ذلك أيضا كتابة المقريزى أحد الروايات، وكانت تحمل نفس الخطأ الذى وقع فيه ابن أبى طى.

obeikandl.com

حملة نور الدين محمود الثانية على مصر

عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م

نجحت حملة نور الدين محمود الأولى على مصر فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م فى تحقيق أهم أهدافها، وهو كشف الستار عن حقيقة أحوال مصر، وتبين لنور الدين محمود مثلما أوضح ابن أبى طى فى ختام روايته عن الحملة الأولى مدى ضعف مصر، ولهذا بدأ فى إعداد القوات لإرسال حملة ثانية لغزوها، ولعزل الوزير شاور الذى غدر باتفاقه معه[١].

وقد عمل نور الدين محمود على توفير الدعم المعنوى للحملة من ناحية، ومن ناحية أخرى جعل من حربه على مصر جهادا دينيا[٢]، فأرسل أسد الدين شيركوه إلى الخلافة العباسية فى بغداد، ليكسب تأييد الخلافة للحملة[٣]، كما اهتم بتوفير الدعم العسكرى للحملة فأرسل مع أسد الدين شيركوه ألفى فارس[٤]، غير «الحشود»[٥]، مضاعفا بذلك قوات هذه الحملة، مقارنة بقوات الحملة الأولى[٦].

و بدأ سير الحملة إلى مصر فى شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م، وقد توفر لدى ابن أبى طى معلومات مهمة انفرد بذكرها عن الحملة فى مراحلها الأولى قبل وصولها إلى مصر، فقال: «ثم توجه أسد الدين فى ربيع الأول سنة اثنتين وستين

---

(١) العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٢٠ (اختصار البنداري) ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٨ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٠ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٣

(٢) حسن حبشي : نور الدين ، ص ١٠٩ ؛ حسين مؤنس : نور الدين ، ص ٢٩٦ .

(٣) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٨ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٥) الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٦) المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(وخمسمائة) قاصدا الديار المصرية، وكتم أخباره، فما راع شاور إلا وُرُود كتاب مُرَّى ملك الفرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصدا ديار مصر، فطلب شاور منه إعادة النجدة[1]»[2].

وقد لاحظنا اتفاق كتابات ابن أبى طى فى أولى رواياته عن الحملة مع كتابات أحد أهم المؤرخين الصليبيين والذين عاصروا تلك الأحداث وهو وليم الصورى، وهذا الاتفاق يؤكد صحة المعلومات التى وصلت إلى ابن أبى طى، حيث كان قد ذكر ما يشير إلى أن حملة شيركوه قد أحيطت بالكتمان، فأوضح أن الملك «عمورى الأول» علم أن شيركوه قد زُود بما يلزمه من الطعام لأيام طويلة، وبكميات وفيرة من الماء، فقامت قوات الملك بتقصى أثره فى الصحراء، ولكنهم لم يصلوا إليه. كما أورد أيضا ما يوضح أنه تم اتصال بين الملك عمورى وشاور أخبره فيه الملك بأمر الحملة[3].

ثم أشار ابن أبى طى إلى الاتفاق المادى الذى تم بين شاور والملك عمورى الأول مقابل إرساله حملة صليبية لمعاونته فى حربه مع شيركوه، فقال: «والمقرر من لمال يصل إليه على ما كان يصل إليه فى العام الماضى[4]»[5].

---

(١) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن معرفة شاور بأمر حملة شيركوه من خلال علاقته بالصليبين . انظر . (المصدر نفسه ، ص ٢٨٢) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٣) ذكر وليم الصوري أنه عند وصول الحملة الصليبية إلي شاور ، « فزع » منهم ، وقد استعجب وليم من هذا الفزع وقال : « ومع أنه كان يعلم السبب الذي حدي بنا للحضور إلا أنه لم يطمئن إلي صدق ما علم » . وفي هذا إشارة إلي أن الملك عموري الأول أرسل إليه يخبره بأمر حملة شيركوه ، فطلب منه شاور أن يرسل حملة لنجدته ، ولكن في الوقت نفسه راود شاور الشك في صحة المعلومات التي أبلغوه بها ، ولما وصلت إليه الحملة الصليبية أرسل شاور قواته للاستعلام عن حملة شيركوه ، فعلم أنها وصلت إلي إطفيح ، وعندئذ تراجع عن شكه في نوايا الصليبيين ، وشكر الملك . (الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٤٠ ـ ٤١) .

(٤) اتفق المقريزي مع ما أورده ابن أبي طي عن الاتفاق المادي بين شاور و الملك عموري . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٢) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٤ .

وقد فَسر المؤرخ «النويري» ما ذكره ابن أبى طى عن مقرر «العام الماضي»، فذكر أنه بعد مغادرة حملة نور الدين محمود الأولى مصر فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م عاد شاور إلى القاهرة، وبقى معه بعض القوات الصليبية ليتقوى بهم، وتم فى ذلك الوقت عقد اتفاق بينهم، وفيه: «بذل لهم (شاور) على نصرته أربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمس سنين»[١]. ولعل هذا ما يقصده ابن أبى طى عن مقرر العام الماضى ،

ومما يؤكد ذلك أنه بعد وصول الحملة الصليبية إلى مصر جدد شاور اتفاقه مع الملك عمورى الأول، وتقرر فى هذا الاتفاق نفس المبلغ الذى ذكره النويرى فى أحداث عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م[٢].

ثم بدأ سير الحملة الصليبية إلى مصر، وقد تناول ابن أبى طى تفاصيل وصول الحملة إلى مصر فقال: «فسار مُرَّى فى عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائرا فى البر، فسبقه الفرنج، ونزلوا على ظاهر بلبيس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك و قعدوا جميعا فى انتظار أسد الدين[٣]»[٤].

وقد لاحظنا هنا أيضا اتفاق كبير بين التفاصيل التى أوردها ابن أبى طى عن هذه الرواية مع كتابات «وليم الصوري»، وهذا الاتفاق يؤكد صحة المعلومات التى وردت إلى ابن أبى طى كما ذكرنا من قبل[٥]، كما لاحظنا أيضا انفراد ابن أبى طى بهذه الرواية بين كثير من المؤرخين المسلمين، حيث كان «ابن الأثير» قد أورد فقط وصول شيركوه إلى مصر عبر

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٤ .

(٢) سنورد تفاصيل هذا الاتفاق في الصفحات القادمة .

(٣) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن وصول الحملة الصليبية إلي مصر . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٥) أوضحنا في الصفحة السابقة ما يؤكد الاتفاق بين رواية ابن أبي طي و وليم الصوري عن وصول الحملة الصليبية قبل حملة شيركوه . (الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٤٠ ـ ٤١) .

الطريق البرى[١]، وذكر «ابن شداد» أن وصول الحملتين كان فى وقت واحد[٢].

ثم عرض ابن أبى طى أحداث وصول حملة شيركوه إلى مصر، وانفرد بين كثير من المؤرخين المسلمين بذكر خطوات سير الحملة داخل صعيد مصر، وتتبع قوات شاور والحملة الصليبية لهذه الخطوات، فقال: «وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس، «فنكب»[٣] عن طريقهم وأمّ الجبل، وخرج على إطفيح وهى فى الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره فسار فى عساكره والفرنج فى صحبته يقفو أثره، واتصل بأسد الدين ذلك، فاندفع بين أيديهم حتى بلغ

«شرونه»[٤] من صعيد مصر، وتحيل فى مركبها وعدى إلى البر الغربى. ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعى عسكريته فأوقع بهم. وأحضر شاور

أيضا مراكب وقطع النيل فى أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج[٥]»[٦].

وقد اتفق هنا أيضا ابن أبى طى مع المؤرخ «وليم الصوري» فى عرضه لأحداث سير حملة شيركوه، وتعقب قوات شاور و الحملة الصليبية لخطواته[٧].

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٥ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق، ص٢٧ . وانظر أيضا : ابن خلكان : المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٧ .

(٣) نكّب : أي عدل عنه . (الرازي : مختار الصحاح، ص ٧٠٣) .

(٤) شرُونه: قرية بالصعيد الأدنى شرقي النيل . وهي الآن من القرى القديمة التابعة لمركز مغاغة التابع لمديرية المنيا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٤٠ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي، قسم ٢ ، ج ٣، ص ٢٤٨) .

(٥) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن وصول حملة شيركوه إلي مصر واتجاهها نحو الصعيد . انظر (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٢-٢٨٣) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٧) قال وليم الصوري : « عاد إلي (شاور) رسله، أنباؤه بأن العسكر التركي قد وصل إلي إطفيح ... انتهي الرأي (بالصليبيين) ...أن يسيروا لمواجهة شيركوه .. قبل اجتيازهم النهر، وأغذوا السير.. فلما وصلوا ... علموا أن شيركوه ...

ثم اتجهت حملة أسد الدين شيركوه نحو «الجيزة» ، واستقرت هناك ـ كما ذكر «العماد الأصفهاني» ـ لمدة تزيد عن الخمسين يوما[1]، وقد اتفق ابن أبى طى معه في

تقدير مدة إقامة شيركوه بها، وأنفرد ببعض التفاصيل الأخرى فقال: «وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوما، واستمال قوما يقال لهم الأشراف «الجعفريون والطلحيون والقرشيون[2]»[3]»[4] .

وخلال فترة إقامة أسد الدين شيركوه فى الجيزة، أرسل إلى شاور خطابا عرض عليه فيه التحالف ضد الصليبيين، وقد أورد ابن أبى طى نص هذا الخطاب، وهو يعد من الوثائق المهمة التى انفرد بذكرها فقال: «فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلف لك بالله الذى لا الله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أننى لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود

فبادر رجالنا إلي القبض عليهم .. ولما اتضح أن شيركوه ورجاله قد عبروا النهر قام جيشنا فتعقبهم » . (الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٤١ ـ ٤٥) .

(١) سنا البرق ، ص ٢٠ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٩ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٥ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٢) قبيلة قريش : بطن كبير من بطون قبيلة كنانة ، وانفصلت عنها قبل الإسلام . ومن بطون قبيلة قريش : « بنو تَيم بن مرة » ، ومن بطونها بنو طلحة وهم نسبة إلي « طلحة بن عبد الله بن أبي بكر الصديق » . ومن بطون قريش أيضا بنو هاشم ، ومن فرع الحسنيين بها « الجعافرة » وهم نسبة إلي « بنو جعفر بن الطيار بن أبي طالب » ، وقد هاجرت قبيلة قريش إلي مصر منذ القرنين الأول والثاني الهجريين ، وأقامت في منطقة الصعيد ، وفي القرن الثالث الهجري أقامت قبيلة قريش في الصعيد الأدنى ابتداء من حلوان وحتى الأشمونين ، وفي القرن الخامس أصبحت قبيلة قريش تقيم في منطقة الأشمونين.(عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ، ص ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ ـ ٧٣ ، ٨١ ، ٩١ ـ ٩٣) .

(٣) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن وصول حملة شيركوه إلي الجيزة ، وتحالفه مع القبائل العربية هناك . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٥ .

إليها أبدا، ولا أمكن أحدا من التعرض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك «إلبا»[١] عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه {عسير}[٢]، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التى أمكنت والغنيمة التى كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد {ثائرته}[٣] وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدا[٤]»[٥].

وقد جاء رد شاور مخالفا تماما لما كان يبغيه أسد الدين شيركوه، قال ابن أبى طى عن ذلك: «فلما صار الرسول إلى شاور وأدى الرسالة أمر بقتله، وقال: ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج[٦]»[٧].

ولم يكتفى شاور برفضه مساندة شيركوه ضد الصليبيين، بل قام بإبلاغهم بأمر رسالة شيركوه، وقام بتجديد عهده معهم. قال ابن أبى طى: «ثم أعلم الفرنج بما أرسل {به إليه}[٨] أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدد لهم أيمانا وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفا على مخالفة شاور له فى هذا الرأى، وقال: والله لو

أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج»[٩].

---

(١) تألّبُوا: أي تجمعوا. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ١٧٧).

(٢) في طبعة «دار الجيل»: «عسر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٦٨).

(٣) في طبعة «دار الجيل»: «نائرته». (المصدر نفسه، ص ١٦٨).

(٤) ذكر المقريزي ملخصا لنص الخطاب الذي أورده ابن أبي طي. انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٣).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٥ (طبعة دار الكتب).

(٦) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن رد شاور على رسالة شيركوه. انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٣).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٥ (طبعة دار الكتب).

(٨) في طبعة «دار الجيل»: «إليه به». (المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٨).

(٩) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٥ (طبعة دار الكتب).

وقد أورد المؤرخ وليم الصورى تفاصيل الاتفاق الذى تم بين شاور و الملك عمورى الأول، و أوضح أن شاورا لجأ إلى تجديد عهده معهم بعد زيادة قلقه من انتشار قوات شيركوه فى مصر، لذا قرر عقد صلح دائم بين الملك عمورى الأول و الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، وفيه تقرر زيادة الجزية السنوية، وإضافة مبلغ من المال يكون منحة للملك من خزينة الخليفة، وتم الاتفاق على: «أن تدفع مصر أربعة آلاف دينار ذهبى منحة لا ترد يعجل بنصفها حالا، أما النصف الآخر وقدره مائتا ألف دينار ذهبى فيرسل فى أوقات معينة حددوها فيما بينهم»[١].

وقد لاحظنا أنه يوجد خطأ فى تقدير قيمة المبلغ الذى أورده وليم الصورى فى الاتفاق، وقد يكون هذا خطأ مطبعيا، و الصواب أن المبلغ المتفق عليه كان أربعمائة ألف دينار، وقد أكد هذا بعض المؤرخين[٢].

وفى خلال الفترة التى أقامت فيها حملة أسد الدين شيركوه فى الجيزة، حاول الوزير شاور أن يصل بقواته إليهم، فقام بإنشاء جسر بين منطقتى الجيزة و«الجزيرة»[٣] للوصول إلى قوات شيركوه من الخلف، قال ابن أبى طى: «ونزل شاور فى اللوق والمقسم، وأمر بعمل «الجسر»[٤] بين الجيزة و الجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال، وأمرهم أن {يجيئوا}[٥]

---

(١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٥ـ٤٦ .

(٢) الحنبلي : المصدر السابق، ص ٦٤ ؛ رنسيمان : المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٠٣ .

(٣) الجزيرة : تقع بين الفسطاط و الجيزة، و سميت بالجزيرة لأن النيل إذا فاض أحاط بها الماء وحال بينها وبين الفسطاط واستقلت بنفسها، وهي من متنزهات مصر، وعرفت بجزيرة الروضة، و لا تزال إلى الآن تعرف بهذا الاسم . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٣٩ ؛ المقريزي : الخطط، ج ٢، ص ١٧٧ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٢٠) .

(٤) للمزيد من التفاصيل حول بناء هذا الجسر انظر : (وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج ٤، ص٥٤.

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « ينحوا » . (أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١٦٨) .

من خلف عسكر أسد الدين[١]»[٢].

وعندئذ قام أسد الدين شيركوه بمراسلة كبار الأمراء والفقهاء بالإسكندرية، وكان قد لجأ إليهم لميلهم إلى المذهب السنى[٣]، وبالفعل لاقت استغاثة أسد الدين شيركوه استجابة من والى الإسكندرية «نجم الدين ابن مصال»[٤]، ومن الفقيه «ابن عوف»[٥]، وآخرين غيرهم، وكل هذه التفاصيل انفرد بها ابن أبى طى، وحدثه بها أحد أهم شهود العيان فى ذلك الوقت وهو «الشريف الإدريسي»[٦].

---

(١) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن إنشاء شاور الجسر بين الجيزة والجزيرة. انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٣).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٥ (طبعة دار الكتب).

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥١.

(٤) نجم الدين ابن مصال: هو أحد أبناء الوزير الفاطمي «سليم بن محمد بن مصال»، لم تتوفر لدينا معلومات عن ولايته للإسكندرية، واختلفت الآراء حول تطور أحواله بعد خروج حملة شيركوه من مصر في عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م، فقيل إنه غادر الإسكندرية إلي الشام، و قيل أيضا إن شاورا قبض عليه ثم أفرج عنه. وقد أوضح العماد الأصفهاني أنه قامت بينه و بين صلاح الدين صداقة قوية جعلت صلاح الدين يحزن عليه حزنا شديدا عند وفاته في جمادى الأولى عام ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م وقال: «لا يخلف الدهر لي صديقا مثله بعده». (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص١٥٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٣٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٣، ٢٨٦).

(٥) هو الفقيه أبو الطاهر بن عوف إسماعيل بن مكي الزُهْري الإسكندراني المالكي: درس الفقه علي «أبي بكر الطرطوشي» وسمع منه الحديث ومن «أبي عبد الله الرازي»، ثم صار من أكابر فقهاء الإسكندرية، وقصده السلطان صلاح الدين وسمع منه «الموطأ»، كما سمّع منه ولداه «الملك العزيز عثمان» و «الملك الأفضل نور الدين علي». وتوفي في شعبان عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٨؛ ج ٣، ص ٢٥١، ٤١٩؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٨١؛ تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٣٣٦؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ١٠٠؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن أبي محمد العزيز الشريف الإدريسي الحسنى الصعيدي: كان علي صلة بكبار الأمراء في أخر سنوات حكم الخلافة الفاطمية، وبصفة خاصة القاضي الرشيد بن الزبير ـ الذي كان

قال ابن أبي طي: «ولما رأى أسد الدين ذلك، كتب إلى أهل الإسكندرية {يستنجدهم}[1] على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم؛ فقاموا معه وأمروا عليهم «نجم الدين ابن مصال»، وهو ابن «أحد وزراء»[2] المصريين، وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفيا فظهر في هذه الفتنة. ثم قال: حدثني «الشريف الإدريسي»، نزيل حلب، قال: كنت بالإسكندرية يومئذ فكتب معي ابن مصال كتابا إلى أسد الدين وقال لي: قل له أني أخبرك أن السلاح واصل. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتها بيومين، وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتب وشافهته {بمقالة}[3] ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة

من مؤيدي حملة شيركوه في الإسكندرية في عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م ـ ولهذا عندما انتقل إلى الشام كان مصدرا هاما لكثير من المؤرخين المعاصرين له، ومنهم: العماد الأصفهاني، فعندما تقابل معه في دمشق في عام ٥٧١ هـ، أنشده للقاضي الرشيد بن الزبير في مدح الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك. كذلك تحدث مع ياقوت الحموي أيضا عن الرشيد بن الزبير (العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ص ٢٠١؛ ياقوت معجم الأدباء، ج ١، ٥٢١ ـ ٥٢٤)

(١) في طبعة «دار الجيل»: «يستنجدتهم». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٦٨).

(٢) هو سليم بن محمد بن مصال: من بليدة «لُكّ» بالقرب من برقة، و ترقي في الخلافة حتى تولي تدبير أمور الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٦ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٣٢ ـ ١١٤٩ م) منذ عام ٥٣٤ هـ/ ٣٩ ـ ١١٤٠ م وحتى وفاة الخليفة في عام ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م، أما ولايته للوزارة فكانت في عهد الخليفة الظافر بأمر الله (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م) حيث ولاه الوزارة في عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م، ولم تستمر وزارته سوى خمسين يوما، حيث دخل معه علي بن السلار والي البحيرة والإسكندرية في صراع علي منصب الوزارة، وقتل ابن مصال في هذا الصراع. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤١٦ ـ ٤١٧؛ ابن أيبك الداوداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٧٤، ١٩٣، ١٩٦ ـ ١٩٨).

(٣) في طبعة «دار الجيل»: «رسالة». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٦٨).

بعد يومين مع ابن أخت {الأمير}[١] ابن عوف[٢]»[٣].

ثم استكمل ابن أبى طى فى كتاباته باقى التفاصيل الأخرى التى حدثه بها «الشريف الإدريسي»، عن بدء تغير حالة الثبات التى كانت عليها حملة أسد الدين شيركوه منذ وصولها إلى مصر تمهيدا لاقتراب موعد أولى المعارك بين حملة شيركوه وقوات شاور و الحملة الصليبية فقال: «قال (الشريف الإدريسى) و بقينا على الجيزة يومين

فوصل إلينا رسول «ابن مدافع»[٤]، يخبر أسد الدين بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله، وسار سيرا «حثيثا»[٥]، حتى قارب «دَلْجة»[٦]، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت. ونزل الناس لتعشية الدواب فلم تستتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقدت المشاعل ليلا وسرنا، فإذا «الجاووش» ينادى فى الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها، ونزل شاور على

---

(١) في طبعة « دار الجيل » : « الفقيه » . ونعتقد أن كلمة « الفقيه » هي الأصح لأن المقريزي ذكر نفس الرواية وقال « الفقيه » ابن عوف ، ولأن ابن عوف كان فقيها . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ، ص ١٦٨ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) .

(٢) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن استنجاد شيركوه بأهل الإسكندرية ، و التي اعتمد فيها ابن أبي طي على ما رواه له « الشريف الإدريسي » . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ (طبعة دار الكتب) .

(٤) ابن مدافع : لم نقف على أية معلومات عنه ، ويبدو أنه كان أحد جواسيس شيركوه لدي شاور ، حيث ذكر « ابن الأثير » أن شيركوه كان قد أرسل إلي المصريين و الصليبيين جواسيس ليخبروه بأمرهم . (الكامل ، ج ٩ ، ص ٩٥) .

(٥) حثيثا : أي مسرعا . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ١٣٨) .

(٦) دَلْجة : قرية بصعيد مصر بغربي النيل ، في الجبل بعيدة عن الشاطئ . وهي الآن من القري القديمة التابعة لمركز ديروط بمديرية أسيوط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٦) .

«الأشمونين[١]»[٢]»[٣].

ثم عرض ابن أبى طى أحداث أولى المعارك التى وقعت بين قوات أسد الدين شيركوه و قوات شاور والصليبيين، وتعرف هذه المعركة بموقعة البابين، واتفق فى سرد الأحداث العامة للمعركة مع المؤرخ «العماد الأصفهاني»[٤]، فقال: «وأمر

أسد الدين الناس أن يقفوا على {تعبئة}[٥] فأصبحوا على ذلك، والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا، وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقا معه، وفريقا جعله مع صلاح الدين وأنفذه ليأتى من خلف عسكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم أن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا، وعلموا أنه لا {ملجأ}[٦] لهم إلا الصبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل فولت عساكر الإفرنج والمصريين الأدبار وكاد مُرّى ملك

---

(١) الأشمونين : من كور الصعيد الأدنى غربي النيل . وكانت تشتمل في عام ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ م على البلاد التي يتكون منها اليوم مركز المنيا وأبو قرقاص بمديرية المنيا ، ومركز ملوي وديروط بمديرية أسيوط ، وفي سنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ م انقرض أسم إقليم الأشمونين من الأقسام الإدارية في مصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧) .

(٢) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن تطور أحوال شيركوه والتي استمدها ابن أبي طي من حديثه مع « الشريف الإدريسي » . انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٥ ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٦ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « تعبية » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٨) .

(٦) في طبعة « دار اجيل » : « منجأ » . (المصدر نفسه ، ص ١٦٨) .

الإفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سلم معه إلى «منية ابن خصيب[١]»[٢]»[٣].

وبعد انتصار حملة أسد الدين شيركوه فى موقعة البابين، انتقلت الحملة من الصعيد إلى الإسكندرية، وقد شجع شيركوه على ذلك المساعدات الكبيرة التى قدمها كبار الأمراء فى الإسكندرية للحملة أثناء وجودها فى الصعيد، ومن المؤكد أنه اتجه إليها بدعوة من واليها، حيث أوضح «العماد الأصفهاني» أنه عند وصول أسد الدين شيركوه إلى الإسكندرية، تسلمها بمساعدة أهلها[٤].

وقد تضمنت رواية ابن أبى طى تفاصيل أخرى مهمة توضح المساعدات المادية والعسكرية التى قدمها كبار أمراء الإسكندرية للحملة. فقال: «وسار أسد الدين على الفيوم إلى الإسكندرية فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم،

وكان فيها «ابن الزبير»[٥] متوليا ديوانها، فحمل إلى أسد الدين الأموال، وقوّاه

---

(١) مُنْيَة أبي الخصيب : مدينة كبيرة تقع علي النيل في الصعيد الأدنى ، وهي قاعدة مديرية المنيا الحالية ، وإليها تنسب مديرية المنيا .(ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢١٨ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج ٣ ، ص ١٩٨) .

(٢) أتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن موقعة البابين . انظر . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٦ .

(٥) هو القاضي الرشيد أبا الحسين أحمد بن علي بن الزبير الغساني الأسواني : كان من أهل العلم والأدب ، وألف كتاب الجنان ورياض الأذهان . أرسله الخليفة الحافظ لدين الله رسولا إلي اليمن ، ثم ولي نظر الإسكندرية ، ولما دخل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الإسكندرية ، تعاون معهم أثناء حصار الوزير شاور للإسكندرية ، وبعد انتهاء الحصار فر إلي برقة ، وأتي به شاور وعذبه عذابا شديدا ، ثم قتله في ذي القعدة عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م وقيل في المحرم عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ المقفي ، ج ١ ، ص ٥٣٣ - ٥٣٤) .

بالسلاح[١]»[٢].

ثم أناب أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى الإسكندرية، وقرر مغادرة الإسكندرية، والاتجاه مرة ثانية نحو الصعيد، وقد علل ابن أبى طى سبب ذلك قائلا: «وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه، فربما تأذى بالحصار، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية، وترك عنده جماعة من العسكر، ومن به مرض أو جراح أو ضعف واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل فى أقوياء عسكره قاصدا إلى الصعيد[٣]»[٤].

وعلى أثر دخول حملة أسد الدين شيركوه إلى الإسكندرية، انتقلت على الفور قوات الوزير شاور، و الحملة الصليبية إليها، وقاموا بحصار الإسكندرية حصارا شديدا دام

ـ كما ذكر العماد الأصفهانى ـ لمدة أربعة أشهر[٥]، وقد اختلف معه ابن أبى طى وذكر أنه كان لمدة ثلاثة أشهر فقال: «ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال[٦]، وبذل أهلها فى نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم وقتل

---

(١) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن اتجاه حملة شيركوه إلي الإسكندرية . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ ؛ المقفي ، ج ١ ، ص ٥٣٤) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٣) اتفق المقريزي هنا أيضا مع ما أورده ابن أبي طي عن سبب مغادرة شيركوه الإسكندرية . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٤) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠ ـ ٢١ . وانظر أيضا : أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٦) اتفق المقريزي مع المدة التي ذكرها ابن أبي طي عن حصار صلاح الدين في الإسكندرية انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٤) .

منهم جماعة عظيمة[١]»[٢].

كان هذا حال حملة أسد الدين شيركوه فى الإسكندرية، أما بالنسبة للقسم الآخر من الحملة الذى اتجه نحو الصعيد، فقد تمكن شيركوه هناك تمكنا كبيرا، حيث استولى - كما ذكر «العماد الأصفهاني» - على الكثير من البلاد وجبى خراجها[٣]، وقد اتفق معه ابن أبى طى فى ذلك وقال: «ولما صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان[٤]»[٥].

ثم وصلت إلى أسد الدين شيركوه أخبار سوء أحوال القسم الثانى من حملته فى الإسكندرية، فرحل إليها فى جيش كبير، ضم بالإضافة إلى قواته، الكثير من القوات الأخرى التى انضمت إليه من الصعيد، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر ذلك، فقال: «واتصل به اشتداد الأمر على الإسكندرية، فرحل من قوص إلى جهتها[٦]، واتبعه جماعة كثيرة من

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول معاناة أهل الإسكندرية من الحصار انظر: (النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٣٦ - ٣٣٧؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٦٤).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٥ - ٩٦؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥١؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٠؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٩.

(٤) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن أحوال حملة شيركوه في الصعيد. انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٤ - ٢٨٥).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٧.

(٦) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن انتقال شيركوه نحو الإسكندرية. انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٤ - ٢٨٥).

العربان وأهل تلك البلاد[١]»[٢].

واتجه أسد الدين شيركوه بعد رحيله من الصعيد نحو مدينة الفسطاط، و ضرب حصارا حول المدينة[٣]، ثم بدأت بعد ذلك مفاوضات الصلح بين الجانبين، وقد تعددت آراء كثير من المؤرخين حول توضيح الظروف التى أدت إلى موافقة كلا الجانبين على عقد الصلح.

فبالنسبة لآراء المؤرخين المسلمين، فقد أوضح «العماد الأصفهاني» أن شاورا نجح فى استمالة بعض قوات «التركمان» فى جيش أسد الدين شيركوه، وأنه كان لهؤلاء التركمان دورا فى التأثير على شيركوه لقبول عقد الصلح[٤]، وذكر ابن أبى طى أن خروج شيركوه بجيش كبير من الصعيد جعل شاور يضطر إلى عقد الصلح، كما أوضح أن موافقة الملك عمورى على الصلح كان بسبب ضيق القوات الصليبية من طول القتال، فقال: «وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج، واضطر إلى الصلح، و ضجرت الفرنج أيضا، فتوسط ملك الفرنج فى ذلك[٥]»[٦].

ويرى ابن شداد أن موافقة أسد الدين شيركوه على عقد الصلح كان بسبب ضعف

---

(١) اتفق بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبي طي ما ذكره عن انضمام بعض القوات من العرب لجيش شيركوه ومنهم : (أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ٣٤٩ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٦٤) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٧ .

(٥) اتفق النويري مع رأي ابن أبي طي عن خوف شاور من كثرة قوات جيش شيركوه ، وأنه لجأ لذلك إلي عقد الصلح . (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٧ . وانظر أيضا : الحنبلي : شفاء القلوب ، ص٦٤)

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

قواته، كما أرجع سبب موافقة الملك عمورى الأول إلى قلقه على البلاد الصليبية فى الشام بسبب قيام نور الدين محمود بفتح «حصن المنيطرة»[١].

و ذكر «المقريزي» أنه كان لحصار شيركوه لمدينة الفسطاط أثرا فى رحيل شاور عن الإسكندرية، فأرسل شيركوه إلى صلاح الدين هناك، يأمره بتقرير الصلح، فبعث إلى الملك عمورى يلتمس منه ذلك فأجابه إليه[٢].

أما بالنسبة لآراء بعض المصادر الصليبية، فقد أوضح «وليم الصوري» أن أسد الدين شيركوه هو الذى بادر بطلب عقد الصلح مع الصليبيين، وذلك بعد وصوله إلى حصن بابليون فى الفسطاط، حيث وجد أن الملك قد قام بوضع الحراسة حول القاهرة،

وأصبحت بذلك الأمور على غير ما يتوقعه، فأرسل عندئذ رسالة إلى الملك عمورى مع أحد الأسرى الصليبيين شرح له فيها أنه لا جدوى لوجودهما فى مصر، وعرض عليه تبادل الأسرى بينهما، ورفع الحصار عن الإسكندرية، كما أوضح له أنه مستعد لمغادرة مصر بشرط تأمين وصوله إلى الشام سالما ؛ فوافق الملك على عقد الصلح، واعتبر هذه المبادرة إشارة إلى استسلام شيركوه، وانتصار للصليبيين[٣].

وفى اعتقادنا أن أسد الدين شيركوه لم يصل إلى هذا الحد الذى وصفه وليم الصورى حيث وضعه فى صورة المستسلم، ولو كان كذلك لخرج من مصر دون أن يُمنح أية تعويضات وهذا لم يحدث، ولكن كان بالفعل موقف حملة أسد الدين شيركوه سيئا، سواء بالنسبة لصلاح الدين فى الإسكندرية، أو بالنسبة لشيركوه فعلى الرغم مما جمعه من القوات إلا أنه لم يستمر فى حصاره للفسطاط، أو حتى يتجه لمعاونة صلاح الدين فى الإسكندرية،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ . وانظر أيضا : أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٣ ـ ٧٥ ، ٧٧ . وأنظر أيضا : رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٦ .

ويرجع ذلك إلى ما ذكره بعض المؤرخين عن ضعف قواته، فضلا عن القلاقل الداخلية التى قد يكون أثارتها قوات التركمان فى جيشه، ولهذا فما أورده وليم الصورى عن بدء أسد الدين شيركوه بعرض الصلح أمرا غير مستبعد خاصة أن المقريزى أوضح - كما ذكرنا من قبل - أن شيركوه أرسل إلى صلاح الدين لكى يقرر الصلح مع الملك عمورى الأول.

على أية حال فقد تم عقد الصلح، وأوضح «العماد الأصفهاني» أنه تقرر فيه أن يمنح شاور أسد الدين شيركوه خمسين ألف دينار، كتعويض له عن ما غرمه فى فترة وجود الحملة فى مصر، وقد اتفق كثير من المؤرخين مع العماد فى ذكر هذا البند[١]، ومن بينهم ابن أبى طى فقال: «فتقرر أمر الصلح على أن شاورا يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه فى هذه السفرة[٢]»[٣].

أما بالنسبة لبنود الصلح مع الملك عمورى الأول، فقد انفرد ابن أبى طى بذكر أحد هذه البنود، وفيه تقرر أن: «يعطى (شاور) الفرنج ثلاثين ألف دينار[٤]»[٥]، وأضاف «ابن الأثير» باقى بنود الصلح، فذكر أن شاورا وافق على إقامة حامية صليبية فى مصر، لتقوم بحراسة أبوابها، كما تقرر أن يدفع لهم من دخل مصر مائة ألف دينار[٦]، وأخيرا أوضح ابن

(١) المصدر السابق، ص ٢١. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٦؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٤؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص ١٧٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٢؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣٧؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٦٩؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٠.

(٢) اتفق المقريزي مع ما أورده ابن أبي طي عن هذا البند انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٥).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٧.

(٤) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن هذا البند. انظر (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٥).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٧.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٦؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص ١٧٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٢؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣٨؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ٢٨٧؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٩؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٦٥.

أبى طى أن شاورا شرط على الفريقين أن: «يعود كل منهم إلى بلاده[١]»[٢].

وبعد أن تم عقد الصلح، خرج صلاح الدين من الإسكندرية، و مضى - كما ذكر «وليم الصوري» - نحو المعسكر الصليبى، فقوبل بكل مظاهر الاحترام فى المعاملة، كما عينوا له حرسا لحمايته[٣].

وهناك طلب صلاح الدين من الملك عمورى أن يسمح له بنقل بعض الضعفاء والمرضى على مراكبهم، فوافق الملك، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر ذلك نقلا عن «الشريف الإدريسي» حيث كان من ضمن الذين سافروا فى هذه المراكب، فقال: «وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فأنفذ له عدة مراكب . قال «الإدريسي»: كنت فى جملة من خرج فى المراكب، فلما وصلنا إلى {ميناء}[٤] عكا أخذنا واعتقلنا فى معصرة القصب إلى أن وصل الملك مرّى فأطلقنا، فخرجنا إلى دمشق[٥]»[٦].

وقد أضاف «رنسيمان» على ما ذكره ابن أبى طى، وأوضح أنه تم إرسال من شفى من قوات صلاح الدين نحو مزارع قصب السكر، وأنهم ظلوا يعملون بها حتى قدم الملك فأطلق سراحهم[٧].

---

(١) اتفق أيضا المقريزي مع ابن أبي طي في هذا الشرط . انظر (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٥) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « مينا » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص١٦٩) .

(٥) اتفق المقريزي مع ما أورده ابن أبي طي عن طلب صلاح الدين بعض المراكب من الملك عموري، وذكر نفس روايته التي أوردها عن الشريف الإدريسي ، دون الإشارة إلي مصدر ابن أبي طي . لمزيد من التفاصيل انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٥-٢٨٦) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧-٤٢٨ (طبعة دار الكتب) .

(٧) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ .

وكما اهتم صلاح الدين بأمر نقل المرضى من قواته، اهتم أيضا بأهل الإسكندرية، فأخذ على شاور عهدا بعدم التعرض لهم، ولكن شاور لم يلتزم بعهده معه، وقام بالقبض على كثير ممن عاون صلاح الدين، وعندئذ اجتمع صلاح الدين مع الملك عمورى الأول مرة أخرى، وحدثه فى هذا الأمر، فاجتمع الملك مع شاور وألزمه بعهد جديد يقضى بعدم التعرض لأى ممن عاون أسد الدين شيركوه أو صلاح الدين.

وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل ذلك فقال: «وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاورا لأهلها بأن لا يتعرض لهم بسوء، واجتمع بعمه أسد الدين، ثم أنفذ شاور وقبض على «ابن مصال» وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم، وتتبع أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاورا نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك ؛ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا. فقال: ليس له ذلك. وانفذ إلى شاور وقال له: أن الأيمان جرت على أن لا {تعرض}[1] لأحد من أهل مصر ولا الإسكندرية ؛ وألزمه يمينا أخرى فى أن لا {يعرض}[2] لأحد ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين[3]»[4].

ومع ذلك فلم يأمن الكثير ممن عاون حملة أسد الدين شيركوه من غدر شاور، ولجأ بعضهم إلى الشام، والبعض الآخر بقى فى مصر، وقد كتب ابن أبى طى عن ذلك فقال: «ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا فى الرحيل إلى الشام. واتصل ذلك بشاور فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم فمنهم من سكن إلى إيمانه

---

(١) فى طبعة « دار الجيل » : « تتعرض » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

(٢) فى طبعة « دار الجيل » : « يتعرض » . (المصدر نفسه ، ص ١٦٩) .

(٣) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي ، و أورد ملخصا لها . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٨ (طبعة دار الكتب) .

ومنهم من لم يسكن ورحل[١]»[٢].

وكما اهتم صلاح الدين بحماية المصريين من غدر شاور بهم، اهتم أسد الدين شيركوه بحمايتهم من الصليبيين، فعمل على أخذ يمين الملك كى ألا يتعرض لمصر مرة أخرى، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر ذلك فقال: «والهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم فى مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مرّى وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك أن لا يدخل إليهم ولا يتعرض لهم. فامتنع الملك، ثم أجاب خوفا أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه، فلم يجد بدا من اليمين فحلف وحلف أصحابه»[٣].

ثم رحلت حملة أسد الدين شيركوه عن مصر فى شهر ذى القعدة عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م، وكان شيركوه عند عودته لا يزال مهتما بأمر مصر، لأنه كان قد علم مدى ثرائها، فعوضه نور الدين محمود عنها، وأنعم عليه - كما ذكر العماد الأصفهانى - بحمص، وسأله السلو عن حب مصر[٤]، وقد اتفق ابن أبى طى فى ذلك مع العماد، فقال: «وخرج أسد الدين من مصر وفى قلبه الداء الدوى منها، لأنه شاهدها وشاهد مُغلاتها فوجدها أمرا عظيما. فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه، وأقطعه حمص وأعمالها[٥]»[٦].

وبعد رحيل حملة نور الدين محمود عن مصر، أوضح «العماد الأصفهاني» أن الكامل بن

---

(١) اتفق المقريزي مع ما أورده ابن أبي طي في هذه الرواية ، انظر:(اتعاظ الحنفا ،ج ٣ ، ص ٢٨٦)

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٨ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤؛ وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٣ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٥) اتفق المقريزي هنا مع المعني العام لرواية ابن أبي طي ، انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٢٨٩،٢٨٧)

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٨ .

شاور راسل نور الدين محمود، بهدف تحسين العلاقات بينهم، وأظهر له محبته وولاءه له، وسأله الدخول فى طاعته، وعرض عليه أن يقدم له مبلغا من المال كل عام، فوافق نور الدين محمود على ذلك[١].

وقد كتب ابن أبى طى أيضا فى هذا الموضوع، وواصل فى روايته توضيح تطور العلاقات بين الوزير شاور و نور الدين محمود بعد أن مهد الكامل بن شاور لعودة العلاقات الودية بينهما، فذكر أن شاورا راسل نور الدين محمود من أجل وقف حملات أسد الدين شيركوه على مصر، فى مقابل مبلغا من المال يدفعه له أيضا فى كل عام، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذه الرواية، وأوردها نقلا عن والده فقال: «وحدثني» أبى رحمه الله «قال: حدثنى غير واحد أن شاورا كاتب نور الدين فى ذلك، وضمن له أن يحمل فى كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة. ولما بلغ {شاورا}[٢] أن نور الدين صرف همة أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولا بهدية سنية، وأصحبه كتابا حسنا[٣]»[٤].

وقد أورد ابن أبى طى نص هذا الكتاب، وهو من الوثائق المهمة التى انفرد بكتاباتها وفى أوله: « ورد كتاب استدعى شكرى وحمدى، واستخلص من الصفا ما عندى، واستفرغ فى الثناء على مرسله جهدى، فكأنما {استمليت}[٥] معانيه مما عندى، واشتملت على حقائق قصدى ؛ وسررت للإسلام وأهله، والدين الذى وعد الله أن يظهره على الدين

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤ . وانظر أيضا : ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٩٦ ؛ الباهر ، ص ١٣٤ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٧.

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « شاور » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

(٣) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي والتي كان والده مصدره فيها ، لملاحظة ذلك انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٩) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ (طبعة دار الكتب) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « استملت » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

كله، {وأن}[١] يكون مثله ملكا من ملوكه، يُرجع إليه فى عقده وحله، وتشير الأصابع وتعقد الخناصر على علو محله. والله يزيده بمكانه تثبيتا وقوة ويحقق على يديه «مخايل»[٢] النصر المرجوه ؛ فما أسعد رأسا دل على نصرة الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر منى، وباق منه على ما نُقل عنى، لا أتغير عن المصلحة فيه ولا {يخالف ما}[٣] أظهره منه لما أخفيه، ولا أستكثر كبيرا أصل إليه، وأتوصلبه لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا، ونصرة كانت فى «هجير»[٤] الخطوب بردا وظلا، وأنعم لا تزال آياتها بألسن الحمد تتلي

وتملى. ولعمرى لقد {بنى بها}[٥] فخرا، وارتفع على الأملاك قدرا وذكرا. ووجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها «الكدر»[٦]، ويحوطها فلا تتطرق إلى جوانبها الغير. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامى مالا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحة يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال[٧]»[٨].

---

(١) في طبعة « دار الجيل » : « بأن » (المصدر نفسه ، ص ١٦٩) .

(٢) المُخايلة : أي المبارة .. (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٢٦٨) .

(٣) في طبعَة « دار الجيل » : « أعدل عما »(أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

(٤) الهَجير : وهو نصف النهار عند زوال الشمس إلي العصر . أي في وقت شدة الحر .(ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٥ ، ص ٣٤) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « علا بناؤها »(أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

(٦) الكَدَر : نقيض الصفاء . والكُدْرَة : من الألوان ما نحا نحو السواد . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٤٤) .

(٧) أشار المقريزي إلي هذا الكتاب فقط فقال : « فأرسل شاور إليه (نور الدين محمود) كتابا يشكر صنيعه » . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٩) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ (طبعة دار الكتب) .

كان هذا الخطاب آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبى طى بعد خروج حملة نور الدين محمود الثانية من مصر، وقد كانت كتاباته عن معظم أحداث هذه الحملة ذات طابع خاص بين كثير من المؤرخين، لانفراده بذكر الكثير من أحداث الحملة.

ويرجع ذلك إلى اعتماده فى جمع بعض كتاباته على شهود عيان للأحداث، وقد اعتمد فى بعض أحداث هذه الحملة على ما حدثه به «الشريف الإدريسي» عن العلاقة بين والى الإسكندرية ابن مصال و أسد الدين شيركوه، حيث كان قد أوفده ابن مصال رسولا إلى شيركوه فى الصعيد، كما أخذ عنه تفاصيل الاتفاق بين صلاح الدين و الملك عمورى بشأن المراكب التى تحمل المرضى إلى عكا، كما اعتمد ابن أبى طى على ما حدثه به «والده» عن العلاقة بين شاور ونور الدين محمود بعد رحيل الحملة، وقد كانت آراء والده من أهم المصادر التى اعتمد عليها ابن أبى طى فى جانب كبير من كتاباته.

كما تمثلت أهمية كتابات ابن أبى طى عن أحداث حملة نور الدين محمود الثانية على مصر فى ذكره لبعض الوثائق المهمة التى انفرد بها، ومن ذلك الرسالة التى كتبها شيركوه أثناء إقامة الحملة فى الجيزة إلى الوزير شاور، وتضمنت الرسالة عرضا للتعاون معا ضد الصليبيين، أما الوثيقة الثانية فكانت خطاب شكر وجهه الوزير شاور إلى نور الدين محمود بعد موافقته على اتفاقه معه بشأن منع حملات شيركوه على مصر ، وقد ظهر لنا من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى بكتابات كثير من المؤرخين اتفاق ابن أبى طى فى المضمون العام لكتاباته عن بعض أحداث الحملة مع كتابات المؤرخ«وليم الصوري»، والذى تعد كتاباته من أهم المصادر الصليبية لمعاصرته لهذه الأحداث، وهذا الاتفاق يؤكد صحة ما وصل إلى ابن أبى طى من معلومات.

كما اتفقت كتابات «المقريزي» عن معظم أحداث هذه الحملة أيضا مع ابن أبى طى، وأورد فى كثير من الأحيان نفس أسلوبه وعباراته، حتى فى الروايات التى كتبها ابن أبى طى عن «الشريف الإدريسي» وعن «والده».

الحملة الصليبية على مصر
٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م

ترتب على اتفاق الصلح الذى كان قد عقده شاور مع الملك عمورى الأول فى عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م، أثارا وخيمة على مصر بعد ذلك، حيث كان أحد بنود هذا الاتفاق ينص - كما ذكر «ابن الأثير» - على بقاء بعض القوات الصليبية لحراسة أبواب مدينة القاهرة، وقد أدى ذلك إلى اطلاعهم بوضوح على حقيقة أحوال مصر فأرسلوا إلى الملك عمورى يدعونه إلى غزوها لضعفها وخلوها ممن يحميها، فقدم على رأس حملة جديدة لغزو مصر فى عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م[١].

وقد اتفق ابن أبى طى مع ابن الأثير فيما ذكره عن أطماع الملك عمورى الأول فى السيطرة على مصر بعد معرفته بحقيقة أحوالها فقال: «وفى سنة أربع وستين (وخمسمائة) طمع مرّى ملك الفرنج فى مصر، وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها، وذلك لما انكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقى فيها»[٢].

ومن الأسباب التى كانت أيضا وراء قرار الملك عمورى الأول بغزو مصر، كان معرفة الملك بالاتصالات التى تمت بين شاور و نور الدين محمود، وأنه انتشرت بعد ذلك شائعة توضح أن شاورا أعرب فى هذه المراسلات عن رغبته فى إلغاء الاتفاقات المبرمة بينه و بين

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٩ . وانظر أيضا: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٣٩؛ ؛أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٩؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٥ . ٤٤٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٥-١٥٦؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٣٩؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٧٢؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨١؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩١؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٦٦ .

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٩ .

الملك عموري[١]. وهناك أسباب أخرى ذكرها الملك عموري لرسول شاور عند وصوله إلى مصر، سنوضحها فيما بعد.

ولهذه الأسباب اجتمع الملك عموري مع كبار رجال المملكة، وتشاوروا في أمر غزو مصر، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذا الاجتماع فقال: «فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء {الداوية[٢]}[٣] و الإسبتارية، وتشاوروا، فجرت بينهم في ذلك خطوب ؛ ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية»[٤].

وعندئذ بدأ الملك في جمع القوات للحملة، وقام بتقسيم أراضي مصر وقراها بين كبار قواده، فذكر «وليم الصوري» أن «جيلبرت الأسالي» رئيس هيئة الاسبتارية في القدس اتفق مع الملك عموري على أن تصبح «بلبيس» بكل ما حولها من الأراضي ملكا لهيئة الإسبتارية[٥]. وقد اتفق ابن أبي طي مع ما ذكره «وليم الصوري» عن فكرة تقسيم مصر، وانفرد بذكر بعض التفاصيل الأخرى فقال: «فأحضر وزيره وأمر بإقطاع بلاد مصر «لخيالته»[٦]، وفرق قراها على أجناده. وكان، لعنه الله، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرف له خبر «ارتفاعها[٧]»[٨]»[٩].

---

(١) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « الدولة » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

(٣) هيئة الداوية : أسست في عام ١١١٨ م ، و وضع أساسها فارس فرنسي وهو « هوجو دي باينز » Hugue De Payens وقد اختار جزءا من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ليكون مقرا لمنظمته ، وأطلق على أتباعه فرسان المعبد Templars ، وعرفوا باسم الداوية ، وقاموا بحماية طريق الحجاج بين المقدس وشاطئ البحر ، ثم لم يلبثوا أن شاركوا في النشاط الحربي للصليبيين في بلاد الشام .(سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .

(٦) الخيالة : أي الفُرسان . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٢٦٧) .

(٧) الرّفاع : اكتناز الزرع ورفعه بعد الحصاد.(المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٧٠)

(٨) اتفق المقريزي مع ابن أبي طي في هذه الرواية . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩١) .

(٩) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ .

ثم بدأ سير الحملة نحو مصر، ووصلت إلى «الداروم»[١]، فعلم الوزير شاور بأمرها، فأرسل رسولا إلى الملك ليسأله عن سبب وصول الحملة، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل ذلك فقال: «ثم سار حتى نزل «الداروم»، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميرا من أمرائه يقال له «بدران»، وسيره إلى لقاء مرّى يسأله

عن السبب فى قصده. فاجتمع به وسأله؛ فتلكأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له «رضيخه»[٢] على أن «يورى»[٣] عنهم، ولا يكشف لشاور حالهم. ويقال أن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة، ويعلم شاورا أنه إنما قصد مصر للخدمة؛ ففعل ذلك بدران، ولما سمع ذلك شاور أشفق منه[٤]»[٥].

ثم أرسل شاور رسولا آخر إلى الملك وهو الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، ودار بينهما حوارا مهما حول أسباب مجيء الحملة، وانفرد أيضا ابن أبى طى بذكر تفاصيل هذا الحوار، فقال: «وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد ابن مختار وقال له: كأن بدران قد غشنى ولم ينصحنى، وأنا فواثق بك فأريد تخرج وتكشف لى حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مرّى وكان بينهما {مؤانسة}[٦]. فلما دخل على الملك قال له: مرحبا بشمس الخلافة. فقال: مرحبا بالملك الغدار، وإلا ما الذى أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بى أن

---

(١) الدَّارُومُ: قلعة بعد غزة للقاصد إلي مصر. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢٤).

(٢) رَضيخَة: المال القليل. ويقال: راضَخَ فلان شيئا إذا اعطاه وهو كاره. (الرازي: مختار الصحاح، ص ٢٦٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٢٣٠).

(٣) وَرَّيْتُ: الشيء أخفيته، وتَوَاري هو: استتر. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٨٣؛ الفيروزابادي: القاموس المحيط، ج ٤، ص ٣٩١).

(٤) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن رسول شاور إلي الملك عموري، انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٩٢).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠ (طبعة دار الكتب).

(٦) في طبعة «دار الجيل»: «مؤالفة». (المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٠).

«الفقيه عيسي»[١] {تزوج}[٢] أخت الكامل بن شاور

من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا. فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد[٣]»[٤].

ولعل الملك عمورى كان يقصد بذكر «الكامل بن شاور» أن يوضح لشاور أنه على علم بالاتصالات التى تمت بين الكامل ونور الدين محمود، ثم بين شاور ونور الدين محمود، والتى ذكرناها فى آخر أحداث حملة نور الدين محمود الثانية على مصر.

ثم أشار الملك فى حواره مع شمس الخلافة إلى سبب آخر دعاه إلى غزو مصر، فقال ابن أبى طى: «فقال له الملك: الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا علي {رأينا}[٥] وخرجوا طامعين فى بلادكم فخفنا من ذلك فخرجنا لنتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأى شئ قد طلبوا ؟ قال: ألفى ألف دينار. فقال: مكانكم

---

(١) هو الفقيه أبو محمد عيسى بن علي الهكاري الملقب ضياء الدين : درس الفقه علي الشيخ الإمام «أبي القاسم بن البرزي » ، واشتغل في بداية أمره فقيها بالمدرسة الزجاجية بحلب ، ثم صار إماما لأسد الدين شيركوه يصلي به الفرائض الخمس ، وصحبه شيركوه معه في حملاته علي مصر . وبعد وفاة شيركوه في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م ساعد صلاح الدين في توطيد أمره في الوزارة في مصر ، وصار من أعيان أمراء عسكره ، واعتمد عليه صلاح الدين في كثير من أحواله ، وكان فقيها جنديا يلبس زي الأجناد ويعّتم بعمائم الفقهاء ، وحضر مع صلاح الدين فتح القدس وكثير من الغزوات ، وتوفي في ذي القعدة عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، ودفن بالقدس .(ابن الأثير:الكامل ،ج ٩،ص ٢٠٥؛ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج ٣،ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨؛أبو المحاسن:النجوم،ج ٦،ص ١١٠)

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « زوج » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠) . ونري أن هذه الطبعة هي الأصح لاستقامة المعني .

(٣) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي عن الحوار بين شمس الخلافة و الملك عموري . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ (طبعة دار الكتب) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « أرائنا » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠) .

حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود[١]»[٢].

وقد فسر المؤرخ «وليم الصوري» ما دار فى حوار الملك عمورى مع شمس الخلافة عن السبب الثانى لقدوم الحملة إلى مصر، والذى كان يتعلق بدخول «قوم من وراء البحر» فى الصراع على مصر، فأوضح أنه قد دارت قبل مجيء الحملة الصليبية إلى مصر عدة مراسلات بين الملك عمورى الأول و الإمبراطور البيزنطى «مانويل الأول» (٥٣٨ ـ ٥٧٦ هـ / ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م) بشأن اقتسام مصر نظرا لثرائها وضعف حكامها، وسار «وليم الصوري» ضمن وفد مملكة بيت المقدس إلى القسطنطينية لتوقيع اتفاقية التحالف بينهما لتنفيذ هذا الأمر[٣].

ثم تناول ابن أبى طى المراسلات التى دارت بين شاور و الملك عمورى الأول أثناء وصول الملك إلى الداروم، وفيها جعل المقرر السنوى الذى قرره له شاور سببا لوصوله فقال: «وحكى أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم كتب إلى شاور يقول له: أنى قد قصدت الخدمة على ما قررته لى من {العطاء}[٤] فى كل عام. فأجابه شاور: إن الذى قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك { و}[٥] إذا قدم على عدو، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجة لى إليك ولا لك عندى مقرر. فأجابه مرى أن لابد من حضورى وأخذى المقرر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الإيمان وأنه قد طمع فى البلاد. فأخذ فى تجنيد

---

(١) اتفق المقريزي مع ما أورده ابن أبي طي عن السبب الثاني لقدوم الحملة الصليبية ، انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٢) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ (طبعة دار الكتب) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « العطا » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « أو » . (المصدر نفسه ، ص ١٧٠) . ونري أن هذه الطبعة هي الأصح لاستقامة المعني .

الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش {وفيرة}[١] وعُدة[٢]»[٣]

ثم واصلت الحملة الصليبية سيرها داخل مصر حتى بلبيس، وانضم إليها بعض الأمراء المصريين الذين كانوا على خلاف مع شاور، و ذكر العماد الأصفهانى منهم: «ابن قرجلة» و «ابن الخياط»[٤]، وهذا الأخير قام فى عام ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م بمحاولة لخلع الوزير شاور[٥]، وقد أورد أيضا ابن أبى طى انضمام هؤلاء الأمراء للحملة فقال: «ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا» يلوى»[٦] على قول حتى خيم على بلبيس فى صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: «علم الملك بن النحاس» و«ابن الخياط يحيى» و «ابن قرجلة»[٧].

ثم دارت بين الملك عمورى الأول لدى وصوله إلى بلبيس عدة مراسلات مع طى بن شاور انفرد ابن أبى طى بذكرها، ولكنه لم يكن دقيقا فى ذكر اسم ابن شاور، حيث كان طى قد قتل كما ذكر ابن أبى طى نفسه فى أحداث وزارة شاور الأولى فى عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م ، وإنما كان المقصود هنا «قيس بن طي». وقد أوضح ذلك «المقريزي» عند ذكره للحوار الذى دار بين الملك عمورى وشمس الخلافة، بعد أن قام الملك بالاستيلاء على مدينة

---

(١) في طبعة « دار الجيل » : « ميرة » . (المصدر نفسه ، ص ١٧٠) .

(٢) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٢)

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٤٣٠ ـ ٤٣١ (طبعة دار الكتب) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٩. وانظر أيضا : ابن الأثير : الكامل ، ج ٩، ص ٩٩ ؛ الباهر ، ص ١٣٨؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٥؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٩؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص٦٦.

(٥) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٨ .

(٦) أَلْوَي : خالف عن جهته ، ولَوَيْتُ عنه الخبر : أخبرته به على غير وجهه . ولوي فلان خبره : إذا كتمه . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٣٦٩) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ .

بلبيس، وفيه أرجع الملك ما فعله بها من تدمير إلى سوء ما بلغه من رد قيس ابن طى فى المراسلات التى دارت بينهم قبل دخوله ببلبيس[١].

قال ابن أبى طى عن هذه المراسلات: «وأرسل (الملك عمورى) إلى طى بن شاور، وكان ببلبيس، وقال له: أين ننزل ؟ قال: على أسنة الرماح. وقال له: أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ؟ فأرسل إليه مرّى: نعم هى جبنة والقاهرة زبدة[٢]»[٣].

وعندئذ قام الملك بحصار بلبيس، وظل يقاتلها - كما ذكر «العماد الأصفهاني» - حتى استولى عليها[٤]، وأورد ابن أبى طى أيضا هذا الخبر فقال: «ثم قاتل بلبيس ليلا و نهارا حتى افتتحها بالسيف»[٥].

وقد وصف المؤرخ «وليم الصوري» حالة أهل بلبيس بعد استيلاء الصليبيين عليها فقال: «حكم الملك السيف فى رقاب الكثيرين من الأهالى دون مراعاة عمر أو جنس...ولم تراع حرمة أى شئ فتوغل العسكر فى البلد... واقتحموا البيوت... وعرضوا على

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ .

(٢) أورد المقريزي نفس تفاصيل رواية ابن أبي طي عن مراسلات الملك مع طي بن شاور ، وذكر فيها نفس خطأ ابن أبي طي عن اسم ابن شاور ، كما أضاف بعض التفاصيل الأخرى عليها . انظر : (المصدر نفسه ، ص ٢٩٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٩٩ ؛ الباهر ، ص ١٣٨ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٠ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨١ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ (طبعة دار الكتب) .

السيف... جميع الذكور الذين هم فى مقتبل العمر»[١]. وقد ذكر ابن أبى طى جانبا من هذه الأحوال السيئة، واتفق فيها مع ما أورده وليم الصورى فقال: «وقتل من أهلها خلقا عظيما، وخرب أكثرها، وأحرق {جلّ}[٢] «آدرها[٣]»[٤].

ثم تناول ابن أبى طى بعد ذلك توضيح أحوال الأسرى فى بلبيس، وقد انفرد بذكر الكثير من التفاصيل المهمة عن هذا الموضوع، خاصة ما ذكره عن الدور الذى قام به صلاح الدين بعد ذلك من أجل أسرى بلبيس، فقال: «ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد وحشروا فى مكان واحد، وحمل فى وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التى كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التى كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكرا لله تعالى على ما أولانى من فتح بلاد مصر، فإنى قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدى أكثرهم النيل إلى جهة «منية حمل»[٥] وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فأقتسموهم وبقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة فى أسر الفرنج، وهلك أكثرهم فى أيديهم، وأفلت منهم اليسير. لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مُغلَّ بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم؛ وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه[٦]»[٧].

---

(١) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٤.

(٢) في طبعة «دار الجيل»: «حلل» (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٧٠).

(٣) جُلّ الشئ: معظمه. آدرها: يقال رجل آدر أي بيِّنُ الأدر. والأدرة: الخُصْية. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٩٤-٩٥؛ ج ٢، ص ٣٣٤).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣١ (طبعة دار الكتب).

(٥) منية حمل: وهي من القرى القديمة التابعة الآن لمركز بلبيس بمديرية الشرقية وتغير اسمها إلى ميت حمل. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي، قسم ٢، ج ١، ص ١٠٥).

(٦) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن أحوال أسرى بلبيس، انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٩٥).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣١.

وإزاء ما حدث من الحملة الصليبية فى بلبيس، ازداد قلق الوزير شاور والخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، ولهذا أرسلوا إلى الملك العادل نور الدين محمود لنجدتهم[١]

وقد انفرد ابن أبى طى فى كتاباته بذكر الكثير من التفاصيل التى كانت وراء قرار أولى الأمر فى مصر بمراسلة نور الدين محمود، وقد اعتمد ابن أبى طى فى كتابة هذه الأحداث على ما حدثه به «شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار» والذى كان والده مشاركا فى تلك هذه الأحداث، ويعد هذا الحديث فى غاية الأهمية، وكشف لنا عن مصدر مهم من مصادر ابن أبى طى.

قال ابن أبى طى: «ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعُدد وجعلوها لهم ظهرا، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد ؛ فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته. فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طَىَ تلك الكتب كتبا، و«سخم»[٢] أعاليها بالمداد. ثم قال ابن أبى طى: وحدثنى «شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار» قال: إنما كتب هذا الكتاب برأى أبى شمس الخلافة، لأنه لما رجع من عند مرّى، لعنه الله، بعد أخذ بلبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندى أمر لا يمكننى أن أفضى به إليك إلا بعد أن تحلف لى أنك لا تطلع أباك عليه فلما حلف له قال له: أن أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد ؛ فأصعد أنت

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٩ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٤ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٠ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨١ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٢) السُخْمَة : تعني السواد . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٣١٢) .

إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره. فقصده الكامل وكتب الكتاب[١]»[٢].

ولما بلغ نور الدين محمود أخبار الحملة الصليبية، أرسل - كما ذكر «العماد الأصفهاني» - في طلب أسد الدين شيركوه، وأخذ في إعداد القوات لإرسال حملة جديدة إلى مصر[٣]، وقد ذكر ذلك أيضا ابن أبي طي فقال: «فلما وصل إلى نور الدين

انزعج انزعاجا عظيما، وأنفذ أسد الدين وكان ذلك من مُناه»[٤].

ثم أوفد نور الدين محمود رسولا من جهته إلى شاور و الخليفة العاضد لدين الله، وظهر من خلال رسائله إليهما، أنه كان حريصا في هذه المرة أن يكون اتفاقه مع الخليفة العاضد، ويرجع هذا إلى عدم ثقته في وعود شاور، لأنه قام بنقض عهده معه في عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، كما سبق أن ذكرنا، وقد انفرد ابن أبي طي بكتابة ذلك فقال: «وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالة سرية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيَّنها، وأن يكتم ذلك من شاور[٥]»[٦].

---

(١) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي والتي كان قد اعتمد فيها علي ما حدثه به شمس الخلافة موسى ، واختصر منها المقريزي قليلا . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٣) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٣) المصدر السابق،ص٤٠ ولمزيد من التفاصيل حول إعداد نور الدين محمود للحملة انظر.(ابن الأثير:الكامل،ج٩،ص ١٠٠؛ابن خلكان:وفيات الاعيان،ج٢،ص٤٤٧؛ابن واصل:مفرج الكروب ،ج١،ص١٥٨ - ١٦؛أبو الفداء:المختصر،ج٣،ص ٤٥؛النويري:نهاية الأرب،ج ٢٨،ص٣٤٠ - ٣٤١؛ابن كثير:البداية،ج ١٢،ص٧٧٢؛المقريزي:اتعاظ الحنفا،ج٣،ص٢٩٤؛الحنبلي:شفاء القلوب،ص٦٧.

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٥) أورد المقريزي ملخصا لرواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٥) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ .

ولعل هذه الأشياء كانت تتعلق بالاتفاق بينهم بشأن المقابل الذى سيدفعه العاضد فى مقابل إرسال الحملة، وكان «ابن الأثير» قد أوضح أن العاضد عرض على نور الدين محمود ثلث دخل مصر، بالإضافة إلى بقاء أسد الدين شيركوه وقواته فى مصر، مع توفير مصاريف إقامتهم[١].

هذا بالنسبة لعلاقات الوزير شاور والخليفة العاضد لدين الله مع نور الدين محمود، أما بالنسبة لباقى أحداث الحملة الصليبية فى مصر، فقد اضطر شاور إلى إحراق مدينة الفسطاط خشية أن يحتلها الصليبيون، ويفعلوا بها و بأهلها كما فعلوا ببلبيس، وقد ذكر العماد الأصفهانى أن شاورا أوقد النيران بالفسطاط فى اليوم التاسع من شهر صفر عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م، واستمر الحريق بها لمدة أربعة و خمسين يوما[٢].

وقد ذكر أيضا ابن أبى طى أخبار حريق الفسطاط، واتفق فيها مع العماد، كما أوضح فى روايته المزيد عن تدهور أحوال أهالى الفسطاط فقال: « و أما الفرنج فساروا إلى جهة «مصر»[٣]، وأمر شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وهجّوا فى بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين دينارا، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت. وأحرقت مصر فى تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٠ . وانظر أيضا : ابن العديم: المصدر السابق ، ج ٢، ص ٣٢٦؛ ابن خلكان :المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٧؛ ابن واصل :المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٨؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨١.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٩ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٠ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨١ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٣) مصر : اسم كان يطلق علي مدينة الفسطاط أول عاصمة إسلامية في مصر . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨٦ ، ٣٤٨) .

يوما»[١].

ثم تقدمت القوات الصليبية فى سيرها من بلبيس وصارت على مقربة من الفسطاط، واستقرت فى منطقة «بركة الحبش»[٢]، فسار «شمس الخلافة محمد بن مختار» إلى هناك، ودار بينه و بين الملك عمورى حوارا أخبر فيه شمس الخلافة الملك بأمر حريق الفسطاط، وبأمور أخرى انفرد بها ابن أبى طى فقال: «ثم أن الفرنج، لعنهم الله، نزلوا فى بركة الحبش، وانبثت أخبارهم فى الأطراف، وتخطفوا من ظفروا به. فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مرّى، لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخانا فى السماء ؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقى فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه ؛ فحل الآن عنك مدافعتى و«مخاتلتي»[٣]، و{كوني}[٤] كلما قلت لك انزل فى مكان تقدمت إلى غيره، وما بقى لك إلا أن تنزل القاهرة. فقال: هو كما تقول ولابد من نزول القاهرة، ومعى فرنج من وراء البحر قد طمعوا فى أخذها[٥]»[٦].

ثم سارت الحملة الصليبية نحو القاهرة، وأقاموا حصارا شديدا حولها، ووصف ابن أبى طى تفاصيل هذا الحصار قائلا: «ثم رحل مرّى فنزل على القاهرة مما يلى «باب

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٢) بركة الحبش : كانت تقع في وهدة من الأرض ، و تشرف علي النيل ، و تعد من أجل متنزهات مصر ، وهي ليست ببركة للماء وإنما شبهت بها ، وعندها بساتين تعرف بالحبش . وهي الآن من البلاد المندرسة ، كان يحدها من الشمال جبانة مصر ومن الغرب النيل ، ومن الجنوب والشرق باقي أراضي البساتين بمديرية الجيزة .(ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٠١ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ١ ، ص ١٥٠) .

(٣) خاتله : أي خَدَعه . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ١٨٧) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « وكن » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧١) .

(٥) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن لقاء شمس الخلافة مع الملك عموري ، انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٧) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ (طبعة دار الكتب) .

البرقية»[١] نزولا قارب به البلد حتى صارت سهام {الجرخ[٢]}[٣] تقع فى خيمته ؛ فقاتلوا البلد أياما[٤]»[٥].

ثم أدرك شاور أنه لا طاقة له بهذا الحصار، فبدأ فى اتباع سياسة اللين مع الملك عمورى الأول ، وقد ذكر «انعماد الأصفهاني» أن شاورا أرسل إلى الملك يعرض عليه مالا مقابل تركه حصار القاهرة، كما طلب منه مهلة لجمع هذا المال، والذى يقدر بألف ألف دينار[٦]، وقد اتفق ابن أبى طى مع ما ذكره العماد الأصفهانى عن سياسة شاور مع الملك، وانفرد بذكر تفاصيل رسالة شاور التى أرسلها إلى الملك عمورى مع «شمس الخلافة محمد بن مختار»، فقال: «فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، و{المغاورة}[٧] والمدافعة، إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مرى، لعنه الله، تعالى برسالة طويلة فَبل بها فى غاربه ودار من حواليه ؛ وفى ضمنها: أن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه ألبتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأى أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابى وتحصّل شيئا

(١) باب البرقية : أحد أبواب القاهرة من جهتها الشرقية . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٠) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « البرج » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧١) .

(٣) الجرخ : آلة حربية تستعمل لرمي السهام والحجارة والنفط المشتعل . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٧ ، هامش (٣)) .

(٤) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن وصف حصار القاهرة ، انظر : (المصدر نفسه ، ص ٢٩٧) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٣ (طبعة دار الكتب) .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٩ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨١ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٨ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٧) في طبعة « دار الجيل » : « المغاررة » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧١) .

أدفعه لك فيحصل لك عفوا»[١].

ثم وافق الملك عمورى على ما اقترحه عليه شمس الخلافة، وقبل حصوله على المال مقابل رحيله عن مصر، وقد فسر «وليم الصوري» موقف الملك بأنه كان: «شرها كل الشراهة فى حبه للمال»، وأنه تلكأ فى الهجوم على القاهرة عن قصد، حتى يتوفر لشاور الوقت ليقدم له المال فينسحب عندئذ[٢].

ثم عقد الصلح بين شاور و الملك عمورى الأول، وأوضح «العماد الأصفهاني» أنه تقرر فيه أن يدفع شاور للملك ألف ألف دينار، فأرسل له منها مائة ألف دينار[٣]، كما ذكر «وليم الصوري» أنه تقرر أن يدفع شاور مليونى قطعة ذهبية، وأن شاورا أرسل للملك مائة ألف قطعة ذهبية[٤].

وقد اتفق ابن أبى طى مع «وليم الصوري» فيما ذكره بشأن الاتفاق بين شاور والملك عمورى فذكر أن المبلغ المتفق عليه كان فى بادئ الأمر «ألفى ألف دينار»، ثم أوضح أن الملك وافق بعد ذلك إلى خفضه للنصف، فأصبح ألف ألف دينار كما ذكر العماد، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر لقاء «شمس الخلافة» مع الملك والذى تم فيه خفض المبلغ المتفق عليه.

قال ابن أبى طى: «فاستقرت {المصالحة}[٥] على أربعمائة ألف دينار[٦]، وقيل ألفى

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٣ (طبعة دار الكتب) .

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٥ـ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٠؛ ابن خلكان : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٦ـ٤٤٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٨؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٥ ؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٤٠؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨١؛ الحنبلي : المصدر السابق، ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٦، ١٠٨ .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « المصانعة » . (أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١٧١) .

(٦) في طبعة « دار الجيل » : « بالباقي » . (المصدر نفسه، ص ١٧١) .

ألف دينار، يعجل له منها مائة ألف دينار. فأجاب مرّى إلى ذلك وانعقدت الهدنة، وحلف مرّى، ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار فى عدة دفعات سوّف فيها الأوقات ؛ ثم أخذ يمطله {فى الباقي}[١] انتظارا لقدوم العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال»[٢].

ثم وصلت حملة أسد الدين شيركوه إلى مصر، وعندما علم الملك عمورى بخبر وصولها رحل مع قواته كما ذكر «وليم الصوري» إلى بلبيس[٣]، واتفق معه ابن أبى طى فى ذلك، فقال: «فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهم ؛ فلما رأوهم رحلوا إلى بلبيس، ونزل أسد لدين {بالمقس}[٤]. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس وأتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس[٥]»[٦].

ثم أورد ابن أبى طى حوارا مهما دار بين الملك عمورى الأول، وشمس الخلافة وفيه اتفق شمس الخلافة مع الملك على خفض قيمة الاتفاق بينهم للنصف فقال: «وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر، أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج «يستطلق»[٧] له منه بعض المال ؛ فصار إليه واجتمع به، وقال: قد قل علينا المال، فقال ملك الفرنج: اطلب منه {ما شئت}[٨]، قال: اشتهى أن تهب لى النصف. قال: قد فعلت. فقال شمس الخلافة:

---

(١) اتفق المقريزي مع ابن أبي طي في ذكر هذا المبلغ ، وأوضح أنه اتفق علي دفعه من المبلغ الكلي فور توقيع العقد ، فدفع شاور منه مائة ألف فقط . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٨) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٣ (طبعة دار الكتب) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٠ .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « المقسم » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧١) .

(٥) اتفق المقريزي مع رواية ابن أبي طي عن وصول حملة شيركوه و رحيل الحملة الصليبية . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٩) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ (طبعة دار الكتب) .

(٧) يستطلق : طَلْق اليدين أي سَمْح . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٤٢٠) .

(٨) في طبعة « دار الجيل » : « شيئا» . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧١) .

ما بلغنى أن ملكا فى مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم فى مثل حالنا. فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاورا لملك، وأنكما ما سألتمانى أن أهبكما هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث. فقال له: صدقت. هذا أسد الدين قد وصل إلى «صدر» نصرة لنا وما بقى لك مقام، وشاور يقول لك أرى أن ترحل، ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشئ وحملنا الباقى إليك متى قدرنا وإن نحن أخرجنا فى رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملك الفرنج: أنا راض بذلك وأن بقى على شئ حملته إليكم ؛ وعوّل على الرحيل ؛ فقال له: بعد أن تطلق «طى ابن شاور»[1] و جميع من فى عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئا، فأجابه إلى جميع ذلك[2]»[3]

وعلى هذا الأساس بدأت الحملة الصليبية تستعد لمغادرة مصر. وانتهت بذلك كتابات ابن أبى طى عن أحداث الحملة، وكما رأينا فقد تميزت كتاباته عنها بانفراده بذكر تفاصيل المراسلات التى دارت بين رُسل الوزير شاور والملك عمورى الأول خاصة مراسلات «شمس الخلافة محمد بن مختار» مع الملك عمورى، والتى كان مصدره فيها على أغلب الظن «شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار» حيث كان ابن أبى طى على علاقة به، وذكر فى إحدى هذه الرسائل ما حدثه به.

كما لاحظنا اتفاق ابن أبى طى فى بعض أحداث الحملة مع المؤرخ «العماد الأصفهاني»، وأيضا اتفاقه مع «وليم الصوري»، وأخيرا اتفاق «المقريزي» مع ابن أبى طى فى معظم كتاباته عن الحملة.

---

(١) كرر ابن أبي طي الخطأ هنا للمرة الثانية في ذكره لاسم طي بن شاور ، والصواب هو ما ذكره المقريزي ، وهو « ابن طي بن شاور » . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٠) .

(٢) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن الحوار الذي دار بين شمس الخلافة و الملك عموري وعرض فيها بشكل أوضح كيف تم خفض المبلغ للنصف انظر: (المصدر نفسه ،ص ٢٩٩ـ ٣٠٠)

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٤ .

أحوال حملة نور الدين محمود الثالثة فى مصر
٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م

جاءت حملة نور الدين محمود الثالثة إلى مصر تلبية لنداء الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، ولإغاثته من هجمات الحملة الصليبية على مصر - كما سبق أن أوضحنا - وعند وصول الحملة كان شاور قد عقد معاهدة الصلح مع الملك عمورى الأول، وبدأت الحملة تستعد لمغادرة مصر، وعندئذ طلب شاور من أسد الدين شيركوه مهاجمة الحملة، ولكن شيركوه رفض طلبه معللا ذلك بأن الحملة صارت على مقربة من الطريق المؤدى لبلادها، وذكّره شيركوه بأن هذا الهجوم كان من الممكن أن يكون ناجحا عندما عرض عليه ذلك من قبل فى عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م.

وقد انفرد ابن أبى طى بتفاصيل هذا الحوار فقال: «و لما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها «اللوق»[١]، و أخرج إليه شاور الإقامات الحسنة و الخدم الكثيرة. و لما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأى أن أخرج أنا و أنت و أن ندرك الفرنج ونوقع بهم، فقال أسد الدين: هذا كان رأيى والفرنج على البر الغربى وليس لهم وزر، وأما الآن فلا، لأنهم على البر المتصل ببلادهم ونحن فقد خرجنا من البر فى أسوأ حال من الضعف والتعب ؛ وقد كفانا الله شرهم، ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج[٢]»[٣].

وقد اهتم الخليفة العاضد لدين الله بأسد الدين شيركوه عند وصوله إلى القاهرة،

---

(١) اللوق : يقع خارج القاهرة . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٩) .

(٢) اختصر المقريزي رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (المصدر نفسه ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

وأوضح «ابن الأثير» أنه اجتمع معه، وخلع عليه، ووفر لقواته إقامة حسنة[١]

وذكر ذلك أيضا ابن أبى طى فقال: «ولما نزل أسد الدين بالملوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه»[٢].

ثم أشار ابن أبى طى إلى رغبة الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، فى ولاية أسد الدين شيركوه الوزارة فى مصر، وظهر ذلك من خلال اجتماعه مع شيركوه سرا، ومطالبته له بقتل شاور، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذا الرأى - وسوف نناقشه فيما بعد مع باقى آراء المؤرخين عند تناولنا لأسباب مقتل شاور - فقال: «ثم أنه (العاضد) خرج إليه (شيركوه) فى الليل سرا متنكرا، و اجتمع به فى خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره[٣]»[٤].

ثم عرض ابن أبى طى بعد ذلك لرؤية رآها شاور فى منامه، وهى تشير إلى أن شاورا كان سببا من الأسباب التى أدت إلى سقوط الخلافة الفاطمية بعد ذلك فقال: «وكان شاور قد رأي[٥] «فى منامه»[٦] ليلة نزل أسد الدين على القاهرة، كأنه دخل دار الوزارة فوجد على

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٠ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٧؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص٤٤٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤١ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٣ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٣) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن تحريض الخليفة العاضد شيركوه علي قتل شاور ، كما ذكر المقريزي أيضا روايته بشكل مختصر انظر : (ابن كثير: البداية ، ج ١٢ ، ص٧٧٣ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص٣٠١) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٥) أورد أبو شامة ملخصا لرواية ابن أبي طي عن هذه الرؤية ، كما ذكر أيضا « ابن الفرات » نقلا عن « ابن أبي طي » النص الكامل لهذه الرؤية . وسوف نذكر النصين معا ، ونوضح الاتفاق والاختلاف بين الروايتين .

(٦) إضافة من ابن الفرات (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠) .

سرير ملكه، رجلا[١] «أسمر حلو الشمائل»[٢]، «وبين يديه»[٣] «دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه»[٤]، وحاجب شاور الذى يكون بين يديه، بين يدى ذلك الرجل، يتناول منه التواقيع. وكان شاور يقول للغلام: من هذا الذى جلس مجلسى، وهو يوقع من دواتى ؟ وكان الغلام يقول له:[٥]» هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦] وكان شاور يقول: ما الذى يصنع محمد عندى ؟ أما كان له فى ملكه غيرى متسع ؟، وكأن شاور قد تقدم وأمره بالقيام عن سريره، وكأنه امتنع، وكان شاور قد جرد سيفه وضربه به حتى قتله، ثم أمر به أن يحمل و يلقى فى ظاهر الدار. فقال شاور هذا المنام، وأحضر رجلا يُعرف «بأبى عبد الله المعبر»[٧] وكان نادرة فى علم التعبير. وقص عليه المنام، فطلب منه الأمان على أن يعبر له المنام. فناوله قلما من دواته، وقال: بهذا القلم كان توقيع رسول الله (ص)، فأخذ المعبر القلم وقبله. وقال: أن هؤلاء الذين فى القصر من نسل سيدنا رسول الله (ص)، و لاشك أن هلاكهم يكون على يدك. فقال له شاور: أن ظهر هذا منك قتلتك. فما أظهره حتى قتل شاور[٨]»[٩].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠ .

(٢) إضافة من ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠ .

(٣) أبو شامة:المصدر السابق،ج١ ، ق٢،ص ٤٣٥ ؛ ابن الفرات:المصدرالسابق،ج٤ ، ق ١ ، ص ٣٠ .

(٤) ذكر هنا ابن الفرات « دواة شاور » و « هو يوقع في تواقيع » (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠) .

(٥) لخص أبو شامة تفاصيل هذا الجزء، وقال فقط : « فسأل عنه فقيل ». (الروضتين، ج١ ، ق٢، ص٤٣٥) .

(٦) (١٠)انتهى هنا نص أبو شامة : الروضتين،ج ١ ، ق٢، ص٤٣٥ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج٤، ق١، ص ٣٠ (المطبوع)

(٧) هو أبو الحسن علي بن نصر بن عفير الأرتاحي المعبّر : من قرية « أرتاح البصر ». من أعمال قيسارية بساحل الشام . (المقريزي : المقفى ، ج ٥ ، ص ٦٠٨) .

(٨) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن رؤية شاور ، انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١) .

(٩) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠ .

وبعد وصول حملة أسد الدين شيركوه إلى مصر، بدأت الحياة تعود فيها إلى طبيعتها و اطمأن أهلها، وعادوا - كما ذكر «العماد الأصفهاني» - إلى بيوتهم فى الفسطاط[١]، وأخذوا فى إصلاح ما أفسده الحريق، كذلك قام أعيان المصريين بالترحيب بأسد الدين شيركوه، وقد تناول ابن أبى طى كل هذه الأحداث فى كتاباته فقال: «ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد، وتراجع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا فى إصلاح ما «شعثه»[٢] الفرنج وأفسدوه[٣]. و«تقاطر»[٤] الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة و أحسن إليهم[٥]»[٦].

وتردد أيضا شاور على أسد الدين شيركوه، و أوضح «العماد الأصفهاني» أنه وفر له و لقواته «الضيافات الكثيرة و الأطعمة الواسعة»، وصار بينهما لذلك ود، و لكن هذه السياسة لم تعجب بعض أمراء أسد الدين شيركوه، وفى مقدمتهم «صلاح الدين»، حيث أدركوا أنه لا سيطرة لهم مع وجود شاور، فأرسل شيركوه إلى شاور«الفقيه عيسى» يحذره ممن معه من الأمراء[٧]، وقد اتفق ابن أبى طى مع العماد، وأورد نفس روايته فقال: «و أما شاور فإنه أخذ فى التودد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٢) الشَّعَثُ : انتشار الأمر وخلله . (ابن منظور : لسان العرب ،ج ٧ ، ص ١٣٠) .

(٣) أشار النويري إلي بعض هذه الإصلاحات ، ومنها قيام صلاح الدين بتجديد سقوف جامع عمرو بن العاص بعد الحريق . (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٤١) .

(٤) القُطْر : الناحية و الجانب ، والجمع أقطار . (ابن منظور : لسان العرب ،ج ١١، ص ٢١٥) .

(٥) اتفق بعض المؤرخين اللاحقين لابن ابن أبي طي مع المعني العام لروايته عن ترحيب المصريين بأسد الدين شيركوه . (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٤١ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٧٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم ،ج ٥، ص ٣٥١) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٤١ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٨ (رواية العماد الأصفهاني) ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٢ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

وأقام له و لعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه، و نوى تبقيته فى ملكه وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سرا: أحرس نفسك من عساكر الشام»[١].

وقد أورد «النويري» تفسيرا آخر لتمرد قوات شيركوه ضد شاور، وأرجع ذلك إلى مماطلة شاور فى دفع المقرر من المال للعساكر، فأرسل إليه شيركوه لذلك «الفقيه عيسى» ليطالبه بنفقة القوات و يحذره منهم، ولكنه لم يأخذ بنصيحته، وانتهى به الحال إلى أن قتل بعد أيام قليلة على أيدى هذه القوات[٢].

وهناك عدة أسباب أخرى أوردها المؤرخون فى تحليلهم لمقتل الوزير شاور، فأوضح «ابن الأثير» ما أشار إليه النويرى عن مماطلة شاور فى دفع المال، ومن ذلك تباطئه فى دفع ثلث دخل مصر لنور الدين محمود حسبما تقرر بينهما فى الاتفاق قبل إرساله للحملة، كذلك ذكر أن شاورا فكر فى عمل دعوة لشيركوه وكبار قواده، ليقضى عليهم فى هذه الدعوة، ولكن ابنه الكامل نهاه عن ذلك، خوفا من وصول الصليبيين إلى مصر بعد معرفتهم بهذا الخبر، فاقتنع شاور برأى ابنه وعدل عن تلك الفكرة[٣]، ولكن هذا المخطط علم به الخليفة العاضد، وذكر «النويري» أنه أبلغ شيركوه بما علمه عن أمر الدعوة[٤]، وقد أكد «ابن الأثير» معرفة شيركوه بأمر الدعوة بعد ذكره لمقتل

الكامل بن شاور بعد مقتل والده شاور، حيث أوضح أن شيركوه حزن على قتله، لأنه كان قد أقنع والده بالعدول عن فكرة الدعوة[٥]، وهذا كله يفسر لنا ما ذكره ابن أبى طى من

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٦ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٢ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٢ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ .

قبل عن اجتماع الخليفة العاضد مع شيركوه سرا، ولعله كان يخبره بما سمعه عن هذه الدعوة.

وأورد أيضا ابن أبى طى أسبابا أخرى تتعلق بطمع شيركوه وغوائه فى مصر، كما أكد مرة أخرى على أن موافقة العاضد على قتل شاور كانت من العوامل التى شجعتهم على التخلص منه. فقال: «وأما عسكر الشام فأنهم لما رأوا طيب بلاد مصر وكثرة خيرها وسعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها واختاروا سكناها، ورغبوا فيها رغبة عظيمة ؛ فقوى طمع أسد الدين فى الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها، ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها، فأخذ فى إعمال الحيلة عليه، وكان العاضد قد تقدم إليه بقتله »[1].

وقد أكد ابن أبى طى هذه الأسباب مرة أخرى عند ذكره لاجتماع أسد الدين شيركوه مع كبار القادة فى جيشه، وإيضاحه لهم فى هذا الاجتماع أهم الأسباب التى تدفعه إلى التخلص من الوزير شاور، وفى مقدمتها قلقه على مصر من وقوعها فى أيدى الصليبيين خاصة بعد أن أدركوا من خلال حملاتهم السابقة على مصر مدى الضعف التى كانت عليه فى ذلك الوقت. وقد انفرد ابن أبى طى بكتابة ما دار فى هذا الاجتماع فقال: «فجمع أصحابه وشاورهم فى أمر شاور، وقال لهم: قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها، لاسيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندى، وعلمت أنهم كشفوا عورتها، وعلموا مسالك رقعتها وتيقنت أنى متى خرجت منها عادوا إليها و احتووا عليها ؛ وهى معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم، وقد قوى عندى أن أثب عليها قبل وثوبهم، وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم، ويغرنا ويغرهم، ويضرب بيننا وبينهم ؛ وقد ضيع أموال هذه البلاد فى غير وجهها، وقوّى بها الفرنج علينا ؛ وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التى قد قل رجالها وهلكت أبطالها. {فتنخّلت}[2] الآراء بين الأمراء أنه لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور ؛

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ (طبعه دار الجيل) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « فتجلت » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٢) .

وتفرقوا على إيقاع القبض به[١]»[٢].

وعلى هذا الأساس أخذ كبار القادة فى جيش أسد الدين شيركوه فى تعقب الفرصة المناسبة لإلقاء القبض على شاور، وقد أوضح ابن أبى طى أن شاورا كان يهتم فى بعض الأحيان فى أثناء سيره باتباع مراسم الخلافة الفاطمية، من حيث الخروج ضمن موكب، فأخذوا فى انتظار فرصة خروجه على هذه الصورة ليندسوا ضمنه، وقد انفرد ابن أبى طى بشرح ذلك فقال: «وكان شاور يركب فى الأبهة العظيمة، و الجلالة الجسيمة، والعدة الحسنة، والآلة الجميلة، على عادتهم الأولى. وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حُمل فى موكبه الطبل والبوق . وكان شاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصدونه»[٣].

ثم عرض ابن أبى طى بعد ذلك لرؤية رآها شيركوه، وهى تبشر بقرب ولايته للوزارة خلفا لشاور فقال: «ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاورا دخل {إليه داره}[٤] وناوله سيفه و عمامته ؛ فتأوّله أسد الدين بالقبض عليه وأخذ منصبه»[٥].

ثم سنحت الفرصة للقبض على شاور عندما خرج فى موكبه، وقد أوضح «ابن الأثير» أن شاورا كان قد خرج فى ذلك اليوم لمقابلة شيركوه، ولكنه لم يجده حيث كان فى زيارة لقبر الإمام الشافعى، وعندئذ قام «صلاح الدين» و«جرديك» بالقبض عليه، ثم علم العاضد

---

(١) اتفق مع رواية ابن أبي طي بعض المؤرخين اللاحقين به وأوردوا ملخصا لروايته ، فقال ابن شداد : « وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد ، وعلموا أن الفرنج متي وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة ، وبالإفرنج تارة أخرى.... وعلموا أنه لا سبيل إلي الاستيلاء علي البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم علي قبضه إن خرج إليهم » . وقال أيضا « ابن واصل » : « واجتمع أسد الدين و أصحابه علي الفتك بشاور » ، ثم ذكر رواية ابن شداد (ابن شداد : النوادر ، ص ٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ ـ ١٦٢)

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ (طبعة دار الكتب) .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣٦ .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « إليه إلي داره » (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٢) .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٣٦ (طبعة دار الكتب) .

بذلك فأرسل إليهم طالبا رأسه، فقتل فى السابع عشر من شهر ربيع الآخرة عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م[١].

وقد اتفق ابن أبى طى مع «ابن الأثير» فى شرح ظروف مقتل الوزير شاور وأضاف أيضا بعض التفاصيل الأخرى، فقال: «ثم إن شاورا ركب يوما فى أبهته وجلالته، فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوما عظيم الضباب ؛ وكان خروج شاور من «باب القنطرة »[٢] للسلام على أسد الدين ؛ فتقدم صلاح الدين فسلم عليه و دخل فى موكبه، ثم سايره، ثم مد يده إلى «تلابيبه»[٣] و صاح عليه فرجله، ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم و وقعوا فى عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاورا إلى خيمة لطيفة وأراد قتله ، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين. وفى الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله فى الحال، وأنفذ رأسه إلى القصر. وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر[٤]»[٥].

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص٣٤٢ـ٣٤٣؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٣ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢) باب القنطرة : أحد أبواب القاهرة من جهتها الغربية ، وعرف بذلك لأن القائد جوهر كان بني قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ، ليسير عليها إلي « المقس » . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨٢ ـ ٣٨٣) .

(٣) تلابيب : التّلْبُ يعني الكتف . والمقصود هنا أنها « كتّفاه » . (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٣ ؛ الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٤٠) .

(٤) اتفق « ابن شداد » في عرضه للأسلوب الذي قتل به الوزير شاور مع أسلوب ابن أبي طي ، كما اتفق أيضا المقريزي مع رواية ابن أبي طي ، انظر : (ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠١) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٦ .

وبعد مقتل الوزير شاور السعدى، تغيرت أحوال الوزارة الفاطمية فى مصر وخرجت عن أيدى المصريين، ودخل الصراع على منصب الوزارة مرحلة جديدة، تولى فيه الحكم من كان يملك القوة العسكرية فى ذلك الوقت فى مصر ـ وذلك طبقا للسياسة المتبعة فى مصر منذ بداية عصر الوزراء العظام منذ عهد «بدر الجمالي» ـ كما سبق أن أوضحنا ـ وهو أسد الدين شيركوه قائد حملة نور الدين محمود الثالثة فى مصر، وصارت مصر فى هذه المرحلة تتبع فعليا الملك العادل نور الدين محمود سلطان الدولة الأتابكية فى الشام.

و قد كان بين وصول حملة أسد الدين شيركوه إلى مصر ومقتل الوزير شاور عدة أيام قلائل لا تتعدى الأسبوعين، وقد تناول ابن أبى طى خلال تلك الفترة الأسباب التى دفعت شيركوه وكبار قواته إلى قتل شاور، وانفرد بجانب من هذه الأسباب، واتفق مع العماد الأصفهانى و ابن الأثير فى الجانب الآخر.

كما لاحظنا اتفاق المؤرخ ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ٣٤ ـ ١٢٣٥ م) مع ابن أبى طى فى ذكره بعض الأسباب التى أدت إلى مقتل الوزير شاور، وأيضا فى أسلوب عرضه لتنفيذ عملية قتله، وكذلك أورد ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) رأى ابن أبى طى الخاص بتحريض الخليفة العاضد لدين الله شيركوه على قتل شاور، وأخيرا اتفقت كتابات المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) مع جانب كبير من كتابات ابن أبى طى عن أحداث تلك الفترة.

وزارة أسد الدين شيركوه فى مصر

١٧ ربيع الآخر - ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م

تولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى مصر عقب مقتل الوزير شاور السعدى ، حيث قابله الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م) وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه - كما ذكر ابن الأثير - «بالملك المنصور أمير الجيوش»[١]، وقد ذكر ابن أبى طى أيضا ولاية شيركوه الوزارة، وأضاف بعض التفاصيل حول مرسوم تقليد شيركوه الوزارة[٢]، ومقتل أولاد شاور، فقال: «وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة، وأنفذ إليه طبق من فضة فيه رأس الكامل بن شاور ورءوس أولاد أخوته. ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على «رءوس الأشهاد[٣]»[٤]. وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحسانا لمعانيه واستظرافا لما أودع من بديع الكلام فيه»[٥].

وبعد ولاية أسد الدين شيركوه الوزارة الفاطمية حكم مصر - كما يقول ابن الأثير - بلا منازع، وعهد إلى صلاح الدين بن أخيه نجم الدين أيوب بمباشرة الأمور معه، وصارت أراضى مصر تحت سيادة شيركوه، ففرق منها العديد على قواته، كما قام باختيار من

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ . وانظر أيضا : ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٣ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٣ - ٧٧٤ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٦ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذا المرسوم انظر . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ - ٩٠).

(٣) الأشهاد : أي حضور قوم شهودوا قراءة المرسوم (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٣٧٢)

(٤) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن ولاية شيركوه الوزارة . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

يثق إليهم من قواته، وعهد إليهم بولاية الأقاليم فى مصر[١]، وقد اختلف ابن أبى طى مع ابن الأثير فى ذلك فقال: «وكان أسد الدين لما ولى الوزارة لم يغير على أحد شيئا، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم، إلى أن انقضت أيامه، وفنيت أعوامه[٢]»[٣].

وفى اعتقادنا لم يستطيع أسد الدين شيركوه أن يحقق تغييرا واضحا فى النظام الإدارى فى مصر، لأنه لم تستمر فترة وزارته طويلا، حيث وافته المنية بعد شهرين و بضعة أيام من ولايته، ولهذا لم تتضح السمات المميزة لفترة حكمه.

و توفى أسد الدين شيركوه فى الثانى و العشرين من جمادى الآخرة[٤]، وقد انفرد ابن أبى طى بكتابة الظروف التى أحاطت بوفاته فقال: «وكان «قرما»[٥] يحب أكل اللحم ويواظب عليه ليلا و نهارا، فتواترت عليه التخم، واتصلت به مرضاته، إلى أن ظهرت بحلقه«خوانيق»[٦]كان فيها تلافه. ويقال أنه أكل فى ذلك اليوم«مضيرة»[٧]

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ . وانظر أيضا : ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٥ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٧ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٤ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٢) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن السياسة العامة لوزارة شيركوه . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٤٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٥) القَرَمُ : ويعني شدة الشهوة إلي اللحم . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١١ ، ص ١٣٠).

(٦) الخُنَاق أو الخُنَاقيَةُ : داء يصيب الإنسان والدواب في الحُلُوق ، وأكثر ما يظهر في الحمام . (المصدر نفسه ، ج ٤، ص ٢٣٦) .

(٧) المَضيرَة : مُريقَة تطبخ بلبن وأشياء . والمضيرة عند العرب أن تطبخ اللحم بالبن البحت حتى ينضج اللحم . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ١٢٧) .

ودخل الحمام، فلما خرج منها أصابه الخناق[١] »[٢].

ثم عرض ابن أبى طى فى روايته عن أسد الدين شيركوه بعض الصفات التى كان يتمتع بها، فقال: «وكان شجاعا، بارعا، قويا، جلدا فى {ذات الله»}[٣] شديدا على الكفار، وطأته عظيمة فى ذات الله صولته، عفيفا دينا، كثير الخير. وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، «حدبا»[٤] على أهله وأقاربه. وكان فيه «إمساك[٥]»[٦]»[٧].

ثم ختم ابن أبى طى كتاباته عن أسد الدين شيركوه بذكر الميراث الذى تركه فقال: «وخلف مالا كثيرا، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم «الأسدية». وهو كان مشيد قواعد الدولة «الشاذية[٨]»[٩]، والمملكة «الناصرية»[١٠]، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت

---

(١) اتفق ابن شداد مع رواية ابن أبي طي عن ظروف وفاة شيركوه، كما أورد ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع. انظر: (ابن شداد: النوادر، ص ٤٠؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ٥٤).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ض ٤٣٨ (طبعة دار الكتب).

(٣) في طبعة «دار الجيل»: «ذانه». (المصدر تفسه، ج١، ص ١٧٢).

(٤) حَدِبَ: أي كان عطوفا وحنونا. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٧٤).

(٥) إمساك: بمعنى أنه كان بخيلا. (المصدر تفسه، ج ١٣، ص ١٠٨).

(٦) أورد المقريزي جانبا من رواية ابن أبي طي عن صفات شيركوه، كما ذكر ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي. انظر: (ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٥٠؛ المقريزيُّ: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٠٥).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٨.

(٨) نسبة إلي «شاذي» والد أسد الدين شيركوه.

(٩) أورد ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي عن ميراث أسد الدين شيركوه، انظر: (تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ٥٠).

(١٠) نسبة إلي ولده «ناصر الدين محمد» أمير حمص. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٨٠؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٧٧-٧٨).

على إقطاع مبلغه تسعمائة دينار ، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية، وعقد له العزاء بالديار المصرية ثلاثة أيام»[1].

وبهذا نكون قد انتهينا من عرض ما توفر لنا من كتابات ابن أبى طى الحلبى عن فترة وزارة أسد الدين شيركوه فى مصر، وقد تميزت كتابات ابن أبى طى عن الظروف التى أحاطت بوفاة أسد الدين شيركوه ، وقد كان من أوائل المؤرخين الذين كتبوا فى هذا الموضوع، وتلاه بعد ذلك «ابن شداد»، كذلك ظهر بصورة واضحة الاتفاق الكبير بين أسلوب كتابات «ابن الفرات» (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) مع كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع، و بما أورده أيضا عن صفات شيركوه و الميراث الذى خلفه، مما يؤكد اعتماد ابن الفرات على كتابات ابن أبى طى . كما اتفق «المقريزي» مع معظم كتابات ابن أبى طى عن فترة وزارة أسد الدين شيركوه.

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ .

ولاية صلاح الدين الوزارة فى مصر

٥٦٤ـ٥٦٧ هـ/ ١١٦٩ـ١١٧١ م

أحدثت وفاة أسد الدين شيركوه المفاجئة صراعا بين كبار الأمراء فى جيشه على تولى منصب الوزارة خلفا له، و اهتم كل واحد منهم ـ كما ذكر «ابن الأثير» ـ بجمع مؤيدين له من الجيش ليصير إليه أمر الوزارة، وكان من بين هؤلاء الأمراء «شهاب الدين محمود الحارمي»، خال صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد آل منصب الوزارة فى نهاية الأمر إلى «صلاح الدين يوسف ابن أخى شيركوه»[(١)].

وقد انفرد ابن أبى طى بتوضيح ظروف ولاية صلاح الدين الوزارة، والدور الذى لعبه خاله «الحارمي» فى ذلك، فقال: «وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامى ، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفى تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين، فأنفذ إليه و أحضره وخاطبه فى تولى الوزارة، فامتنع من ذلك، وأشار بولاية الملك الناصر. وكان الحارمى أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها، وحصل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فيفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به لأنها إذا كانت فى ابن أخته كانت فى بيته»[(٢)][(٣)].

وكان «الخليفة العاضد لدين الله قد وافق على ولاية صلاح الدين الوزارة، بعدما أخذ

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٢ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٨ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٨ .

(٢) ذكر ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي عن ولاية صلاح الدين الوزارة ، كما أورد المقريزي أيضا روايته عن هذا الموضوع . انظر : (ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤، ق ١، ص ٥٦ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٨) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

برأى مستشاريه فى القصر، و قد أوضح «ابن الأثير» أنهم رجحوا ولايته، نظرا إلى كونه أضعف و أصغر أمراء نور الدين محمود فى مصر، فيضمنوا بذلك ولائه و طاعته لهم[١]، وقد أضاف ابن أبى طى فى روايته أسبابا أخرى، تتفق فى مضمونها مع ما قيل حول ضمان طاعة صلاح الدين للخليفة فى المستقبل فقال: «وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته، و إقدامه على شاور فى موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره، ولم{يتريث}[٢] ولا توقف[٣]»[٤].

فقلد العاضد لدين الله صلاح الدين الوزارة فى مصر، وقد انفرد ابن أبى طى بوصف الخلعة التى قدمها الخليفة لصلاح الدين فقال: « فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمى من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء «تنيسي»[٥] بطرز ذهب وثوب«دبيقي»[٦]

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٢. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨. ١٦٩؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٨ـ٣٥٩؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٣؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٩٣.

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « يتربص » . (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٧٣) .

(٣) اتفق ابن الفرات مع جانب من رواية ابن أبي طي عن أسباب اختيار العاضد لصلاح الدين فقال: « وقع اختيار العاضد عليه .. لأنه كثير الميل إليه لشجاعته و براعته » . (تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ٥٦) .

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٩ (طبعة دار الكتب) .

(٥) تنّيْس: اشتهرت مدينة تنّيْس بصناعة الثياب، فكان يصنع بها ثياب « الشروب »، و ثوب « البَدنة » المصنوع معظمه منَ الذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلي تفصيل. و تقع جزيرة تنّيْس بين الفرما ودمياط، والفرما تقع في شرقها. وهي الآن من البلاد المندرسة، ولا تزال الجزيرة الّتي كانت بها مدينة تنيس باقية ببحيرة المنزلة، وتعرف بجزيرة تنيس، وتقع في الجنوب الغربي لمدينة بورسعيد. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١؛ المقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٧٧؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، قسم ١، ص ١٩٨) .

(٦) دَّبيقيّ: نسبة إلي بلدة « دبيق » من قرى دمياط، ينسب إليها الثياب المثقلة و العمائم الشرب الملونة و المذهبة. (المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢٦٦) .

{بطراز}[١] ذهب، وجبة تحتها «سقلاطون» بطرازى ذهب، و «طيلسان»[٢] دبيقى بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى {بجوهر}[٣] قيمته خمسة آلاف دينار وفرس «حجر»[٤] صفراء من مراكب

العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها. و«طوق»، و«تخت»[٥]، و«سرفسار» ذهب مجوهر، وفى رقبة الحجر «مشدة» بيضاء، وفى رأسها مائتا حبة جوهر، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، و«قصبة» ذهب فى رأسها «طالعة» مجوهرة ، وفى رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ومع الخلعة عدة «بقج»، وعدة من الخيل، و أشياء أخر؛ ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض[٦]. وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ؛ وقرئ المنشور[٧] بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة ؛ وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ؛ وكان يوما عظيما. وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء و وجوه البلد، وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات و الصلات»[٨].

---

(١) في طبعة « دار الجيل » . « بطرازي» . ونعتقد أن هذه الطبعة هي الأصح لاتفاقها مع رواية المقريزي . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٩)

(٢) الطَّيْلَسَانُ : لفظ فارسي ، ويعني ضرب من الأكسية . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٨ ، ص ١٨٣) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « مجوهر » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) .

(٤) الحَجَرُ : الفرس الأنثى التي جعلوها كالمحرمة إلا علي حصان كريم ، وفي هذا إشارة إلي جودة الفرس . (ابن منظور : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٩) .

(٥) التَّخْتُ : لفظ فارسي ، وهو وعاء تصان فيه الثياب . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١) .

(٦) أورد كل من المقريزي وابن قاضي شهبة نفس رواية ابن أبي طي عن وصف الخلعة ، انظر : (المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٠٩؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ورقة ١٣٧-١٣٨ (مخطوط)

(٧) لمزيد من التفاصيل حول مرسوم ولاية صلاح الدين الوزارة انظر . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩١ - ٩٨) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

وقد اهتم صلاح الدين خلال فترة وزارته باستمالة قلوب الناس فى مصر، و أوضح «ابن الأثير» أنه بذل لهم الكثير من الأموال التى كان جمعها عمه أسد الدين شيركوه، فمال إليه الناس وأحبوه[١].

وقد لخص ابن أبى طى السمات العامة للسياسة التى اتبعها صلاح الدين، و التغيير الذى حدث فى شخصيته بعد ولايته الوزارة، فقال: « ولما استقرت قدمه فى الوزارة والرياسة، قام فى الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة «بَدَدَها»[٢]، وجرى فى مناهج العدل على «جَدَدها»[٣]، و«حَيْعَلَ»[٤] إلى جوده و فضله، ونادى إلى «رفده»[٥] وبذله وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان ؛ واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل، وروّى بفسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل ؛ وتاب من الخمر وعدل عن اللهو وتيقظ للتدبير وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين[٦]، وحفظ ناموس الشرع المبين ؛ وشمر عن ساق الجد والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه و جُود جوده «شآبيب»[٧] فضله {الغائب}[٨] عن العهاد ؛ وورد عليه القصاد والزوار، و {أمّ}[٩] بنفائس الخطب وجواهر

(١) الباهر ، ص ١٤٣ ؛ الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٢ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) بدد : فرق . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ٣٣٧) .

(٣) جَدد : عظم . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٩) .

(٤) حيّعل : في اللغة أي قال حيَّ علي الصلاة (المصدر نفسه ،ج ٣ ، ص ٢٣٣) .

(٥) الرَّفْد : العطاء و الصلة . (المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٦٤) .

(٦) اتفق ابن شداد مع رأي ابن أبي طي عن إقلاع صلاح الدين عن الخمر بعد ولايته الوزارة فقال : « فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد و الاجتهاد ».(ابن شداد:النوادر السلطانية،ص ٤٠ .وانظر أيضا:المقريزي:اتعاظ الحنفا،ج٣،ص٣١٠؛الحنبلي:شفاء القلوب،ص٩٤)

(٧) الشآبيبُ : الدُفْعَة من المطر وغيره . (ابن منظور: لسان العرب ، ج ٧، ص٥) .

(٨) في طبعة « دار الجيل » . « النائب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص١٧٣) .

(٩) في طبعة « دار الجيل » . « أمر » . (المصدر نفسه ، ص ١٧٣) .

الأشعار[١]»[٢].

ومن الواضح أن صلاح الدين كما عمل على استمالة كثير من المصريين إليه حرص أيضا على توطيد علاقته مع الخليفة العاضد لدين الله، وقد نجحت سياسته معه، و صار العاضد - كما أوضح ابن الأثير - لا يمنع عنه شيئا مما يطلبه من المال[٣]،و قد تناول ابن أبى طى هذه العلاقة، وانفرد بذكر بعض المعلومات التى توضح التطور الذى طرأ عليها، وذلك من خلال حديثه مع بعض الأمراء، فقال: «حدثنى بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر«راكبا»[٤] فإذا حصل عنده {أقام}[٥] معه فى قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره[٦]»[٧].

---

(١) ذكر ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي في هذا النص.انظر:(تاريخ ابن الفرات،ج٤،ق١،ص٦٤)

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ (طبعة دار الكتب) .

(٣) الباهر ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٤) كانت المراسم في القصر الفاطمي تتضمن ألا يركب أحد في القصر غير الخليفة ، وكان الوزير مستثنى من هذه القاعدة بسبب مكانته ، فبينما كان الأمراء يترجلون إذا وصلوا إلي باب القصر ، كان للوزير حق الركوب حتى يصل إلي أول باب من الأروقة الطويلة التي تسمي « الدهاليز الطوال » ، ويقف عند رواق يعرف « بدهليز العمود » ، ثم يتجه إلي المكان الذي يقصده في القصر . ويبدو من كتابات ابن أبي طي أن صلاح الدين كان يظل راكبا لأبعد من دهليز العمود ، لأن أسلوبه يوحي بأن هناك تميزا حدث له عن باقي الوزراء قبله . (المقريزي :الخطط ، ج ١، ص ٣٨٦؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، ج ٢، ص ١١٩،١١٤).

(٥) في طبعة « دار الجيل » . « قام ». (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) .

(٦) أورد ابن الفرات نفس رأي ابن أبي طي عن توطد العلاقة بين صلاح الدين والخليفة العاضد ، بما في ذلك مصدر ابن أبي طي عن هذه الرواية فقال : « حدث بعض أمراء ذلك العصر قال : أقبل العاضد صاحب الديار المصرية علي الملك الناصر ... و أحبه محبة عظيمة ، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلي القصر راكبا ، فإذا حصل عنده أقام في قصره معه اليوم و العشرة لا يعلم أين مقره » . وعرض أيضا المقريزي ملخصا لروايته ، انظر : (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٥ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٠ ؛) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ (طبعة دار الكتب) ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ورقة ١٣٩ .

ومع هذه الجهود التى بذلها صلاح الدين من أجل استمالة الخليفة العاضد والمصريين، إلا أنه ظل بعض الأمراء الذين كانوا يسعون لتولى منصب الوزارة لا يوافقون على الاستمرار فى مصر تحت زعامته، ولهذا أصروا على العودة إلى الشام، وكان من بينهم «عين الدولة الياروقي»، وهو كان - كما ذكر «ابن الأثير» - أكبر الأمراء سنا وأكثرهم جمعا، وفشلت مساعى «الفقيه عيسي» من أجل إبقائه، هو والأمير «عز الدين جورديك»[1]، فعادوا إلى خدمة نور الدين محمود فى الشام[2]، وقد ذكر ابن أبى طى أيضا هذا الموضوع، فقال: و لما استولى الملك الناصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه فى ماله و بلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية، «كابن ياروق» و«جرديك» وجماعة من غلمان نور الدين. ثم أنهم فارقوه وصاروا إلى الشام[3]»[4].

واهتم صلاح الدين بعد ولايته الوزارة باجتماع أهله معه فى مصر، فذكر «ابن الأثير» أنه راسل الملك العادل نور الدين محمود فى هذا الأمر، فأرسل إليه فى عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م والده «نجم الدين أيوب» وأهله وأصدقاءه[5].

---

(١) هو الأمير عز الدين جُرْدِيك بن عبد الله النوري : كان من موالي الملك العادل نور الدين محمود ، ثم عتقه وصار من أكابر أمرائه ؛ ثم خدم مع صلاح الدين في جميع غزواته وحروبه ، وولاه نيابة القدس ، و توفي في عام ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ ـ ١١٩٨ م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٤٤٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٤٣) .

(٢) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٤ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٠ .

(٣) ذكر ابن الفرات ملخصا لرواية ابن أبي طي عن عودة بعض الأمراء إلي الشام . انظر : (تاريخ ابن الفرت ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٥) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٥) الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٦ ؛ الباهر ، ص ١٤٣ . وانظر أيضا : ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٨٨ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٠ ، ٣١٦ .

وقد أوضح ابن أبى طى أن الدافع وراء سفر نجم الدين أيوب إلى صلاح الدين فى مصر، كان إبلاغه بضرورة الإسراع فى إقامة الخطبة العباسية فى مصر للخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ـ٥٦٦ هـ/ ١١٦٠ـ١١٧١ م)، وبمعنى آخر التعجيل بإنهاء حكم الخلافة الفاطمية فى مصر، و أرسل معه نور الدين محمود رسالة إلى صلاح الدين تحمل هذا المعنى فقال: «فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمله رسالة منها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه.... لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته...[١]»[٢].

فوصل نجم الدين أيوب إلى مصر، و أشار «العماد الأصفهاني» إلى الاهتمام الذى لاقاه من جانب الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله الذى خرج إلى استقباله[٣] وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل استقبال نجم الدين أيوب و الإقطاعات التى منحها صلاح الدين لأبيه فى مصر. فقال: «وسار نجم الدين وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر[٤]، ووصل إلى القاهرة، ودخلها لست بقين من شهر رجب[٥]، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر «باب الفتوح»[٦] عند شجرة «الإهليلج»[٧] ولم يجر بذلك عادة لهم. وكان من أعجب

---

(١) أورد ابن الفرات والمقريزي وابن قاضي شهبة نفس رواية ابن أبي طي عن سبب وصول نجم الدين أيوب إلي صلاح الدين في مصر ، انظر : (ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٨٩ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٦ـ٣١٧ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ورقة ١٤٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ـ٤٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٦ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٦ ؛ ابنُ واصل : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٨٥ـ١٨٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٩٠ .

(٦) باب الفتوح: خطه جوهر القائد عند إنشاء القاهرة ، ويقع برأس حارة بهاء الدين من قبليها ، ثم جدده أمير الجيوش بدر الجمالي بعد ذلك . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٠ـ٣٨١) .

(٧) الإهْليلَجُ : شجر هندي . الثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضيج . ويقع شجر الإهليلج في صحراء الإهليلج الواقعة شرقي الخندق خارج باب الفتوح . (الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج

يوم شهده الناس: وخلع العاضد عليه ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر و الأجر، وأفرد له دار إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودمياط و البحيرة[1]»[2].

وانفرد ابن أبى طى أيضا بذكر تفاصيل الإقطاعات التى منحها صلاح الدين لأخيه الأكبر «شمس الدولة تورانشاه»[3] فى مصر فقال: «وأقطع «شمس الدولة تورانشاه» أخاه «قوص»، «وأسوان»، و«عيذاب»[4]، وكانت

«عبرتها»[5] فى هذه السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار. وسار شمس الدولة إلى قوص وولاها «شمس الخلافة محمد بن مختار» وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيَّر «رسلان بن دغمش» لجباية خراجها، فخرج عليه «عباس بن شاذي»، فى جماعة من الأعراب والعبيد فى «مرج بنى هميم»[6]، فغنمه رسلان وعاد إلى

---

١ ، ص ٢١١ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٨) .

(١) اورد كل من : ابن الفرات ، والمقريزي ، وابن قاضي شهبة رواية ابن أبي طي عن وصول نجم الدين أيوب والإقطاعات التي منحها له صلاح الدين في مصر دون الإشارة إليه ، انظر : (ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ ؛ المقفي ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ورقة ١٤٥ ـ ١٤٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٣) هو الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شاذي بن مروان : أخو صلاح الدين الأكبر . وكان قد أرسله في عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م لفتح اليمن ، فتمكن من ملكها ، ثم عاد من اليمن واستخلفه صلاح الدين بدمشق فأقام بها مدة ، ثم انتقل إلي مصر وتوفي بالإسكندرية في عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٠٦ـ٣٠٧) .

(٤) عَيْذاب : مرسي يقع علي بحر القلزم ، وهو الآن من البلاد المندرسة ، وكان طريق الحج المصري يسير إليه الحجاج من قوص ، وعنده يجتازون البحر الأحمر إلي مكة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧١ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، ق١ ، ص ٣٣٩) .

(٥) اعتَبَر : بمعني وزن . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٩ ، ص ١٨) .

(٦) مرج بني هميم : يقع بصعيد مصر ، شرقي النيل ، ويسكنه قبيلة من العرب . وهو الآن من البلاد

القاهرة[١]»[٢].

ثم ختم ابن أبى طى كتاباته عن أحداث عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م بخبر ولادة أول أبناء صلاح الدين، وهو تقليد اتبعه ابن أبى طى أثناء تدوينه سيرة صلاح الدين، حيث حرص أن يتضمن كتابه أخبار حياة صلاح الدين الخاصة أيضا، فقال: «وفى هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده «الملك الأفضل نور الدين عليا»[٣]، وفرح به فرحا

عظيما، وخلع وأعطى، وتصدق بما بهر به العقول ومن قصيدة «للحكيم عبد المنعم»، قد تقدم بعضها:

فى مشرق المجد نجم الدين مطلعه ... وكل أبنائه شهب، فلا أفوا

جاؤا كيعقوب والأسباط، إذ وردوا ... على العزيز من أرض الشام واشتملوا

لكن يوسف هذا جاء أخوته ... ولم يكن بينهم نزع ولا زلل

البلاد المندرسة ، وكان يشتمل على عدة مناطق تقع شرق النيل بمديرية جرجا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠١ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ١ ، ص ٤٠٩) .

(١) اورد ابن الفرات والمقريزي وابن قاضي شهبة رواية ابن أبي طي عن الإقطاعات التي منحها صلاح الدين لتورانشاه . انظر:(ابن الفرات : تاريخه، ج٤ ، ق١، ص٩١-٩٢؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣، ص ٣١٧ ؛ المقفي ، ج ٢، ص٣٨٠ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ورقة ١٤٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٣) هو الملك الأفضل علي ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب : أكبر أبناء السلطان صلاح الدين وولي عهده ، وبعد وفاة والده في عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م استقر ملكه في كل من : دمشق ـ الساحل ـ البيت المقدس ـ بعلبك ـ صرخد ـ بصرى ـ هونين ـ تبنين . وصار سلطانا للدولة الأيوبية . ثم ما لبث أن اختلت أموره ، ودخل في صراع مع أخيه « الملك العزيز عثمان » ، ملك مصر ، من أجل سلطنة الدولة الأيوبية منذ عام ٥٩٠ ـ ٥٩٢ هـ / ١١٩٤ـ ١١٩٦ م ، وانتهى الصراع بينهم لصالح الملك العزيز ، واستقر ملك الأفضل في « صرخد » . و توفي الأفضل فجاة بقلعة « سُمَيساط » في شهر صفر عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م . وكان يبلغ من العمر سبع و خمسين عاما . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ٣٥٦ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤٠ ، ٤٤٤ ـ ٤٥١ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٢٠ ، ٢٦٢) .

وملكـــوا أرض مـــصر فى شـــماخته ومثلهـــا لرجـــال مـــثلهم نزلـــوا»[١]

و قد شهد عام ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م اهتماما كبيرا من صلاح الدين بأمور مصر فقام بعمارة سور القاهرة، كذلك قام ببعض الإجراءات التى مهد بها لسقوط الخلافة الفاطمية ومذهبها الشيعى، ولعودة مصر إلى تبعية الخلافة العباسية السنية المذهب، و كتب ابن أبى طى عن هذه الأمور وانفرد بذكرها بين كثير من المؤرخين، فقال: «فى هذه السنة شرع السلطان، يعنى صلاح الدين، فى عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقا لا يردُ داخلا و لا خارجا، وولاه «لقراقوش الخادم»[٢]، وقبض على القصور وسلمها إليه، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، و قطع من الآذان حى على خير العمل، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس[٣]»[٤].

ثم أوضح ابن أبى طى ما أضافه صلاح الدين لأخيه شمس الدولة تورانشاه من إقطاعات فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م،فقال: «وفيها طلب شمس الدولة تورنشاه ؛ من أخيه السلطان «ربع الكامل»[٥] بالقاهرة، وأزداد على إقطاعه «بوش»[١] وأعمال

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

(٢) هو أبو سعيد قر قوش عبد الله الأسدي الخادم الملقب بهاء الدين : كان من أعيان الأمراء الأسدية وعمل في خدمة صلاح الدين ، وكان يثق به فوكل إليه زمام القصر الفاطمي ، كما كلفه ببناء قلعة الجبل بالقاهرة ، و ببناء سور القاهرة ومصر القديمة ، ولما فتح صلاح الدين مدينة « عكا » ولاها له ، وبعد استيلاء الصليبيين عليها أُخذ أسيرا ، وظل في الأسر حتى شوال عام٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ففداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار وقيل بستين ألفا، وتوفي في عام٥٩٧هـ/ ١٢٠١م.(ابن الأثير : الكامل ،ج٩،ص١١١؛ابن خلكان:وفيات الأعيان،ج٤، ص٩١ـ٩٢أبو المحاسن:النجوم،ج٦،ص١٧٦ـ١٧٨)

(٣) أورد كلا من ابن الفرات والمقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن أهم الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين للتمهيد لإسقاط الخلافة الفاطمية . انظر (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ١٣١ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٧ ، ٣٢١ ـ ٣٢٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٥) قد يكون المقصود بذلك بعض المناطق التي كانت في إقطاع الكامل بن شاور قبل مقتله .

الجيزة، و«سمنود»[٢] وغيرها[٣]»[٤].

وفى خلال هذا العام راسل الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٧٤ م)، صلاح الدين من أجل الإسراع فى إنهاء حكم الخلافة الفاطمية فى مصر، وقد ذكر «العماد الأصفهاني» أنه كاتبه فى ذلك فى شوال عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م، وطالبه ـ كما أورد «النويري» ـ بالقبض على الخليفة العاضد لدين الله وأقاربه وإقامة الخطبة فى مصر للخليفة العباسى المستضئ بأمر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٧١ ـ ١١٨٠ م)[٥]، وأرسل إليه: «أنه من المناسب أن تزين وتنور رؤس المنابر ووجوه الدنانير باسم ولقب المستضئ»[٦].

وقد عرض أيضا ابن أبى طى فى روايته هذه المراسلات فقال: «قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين، رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين فى إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنه

---

(١) بُوشُ : مدينة بالصعيد الأدنى غربي النيل . وهي الآن من القرى القديمة التابعة لمركز بني سويف بمديرية بني سويف . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٠٨ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج ٣ ، ص ١٥٨) .

(٢) سَمَنُودُ : مدينة قديمة علي ضفة النيل ، تقع جهة دمياط ، بينها وبين المحلة ميلان . وهي الآن قاعدة مركز سمنود بمديرية الغربية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، قسم ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٢) .

(٣) أورد ابن الفرات والمقريزي نفس رواية ابن أبي طي عن ما استجد لتورانشاه من إقطاعات انظر : (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٣٠ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٢٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٥) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٦٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١١١ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٤ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٦) خواندمير : روضة الصفا ، ص ٢٣٢ .

أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة إلى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه «المستضئ» أقبل أيضا على مكاتبة نور الدين

فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه.. و لما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك[1]»[2].

وقد تطلب تنفيذ هذا الأمر جهدا كبيرا من صلاح الدين، فعمل على تحجيم دور الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله والسيطرة الكاملة على القصور الفاطمية، والقضاء على بعض القلاقل الداخلية، وأخيرا عمل على تمهيد الشعب المصري لتقبل إنهاء وضع عاشوا فيه لأكثر من قرنين تحت حكم ومذهب الخلافة الفاطمية.

ولهذا كان صلاح الدين يؤجل تنفيذ أمر نور الدين محمود، وكان يعتذر إليه بهذه الأمور، وقد تناول ابن أبى طى تفاصيل هذا الموضوع فقال: «فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر بعد، وأمور، مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله. فلما أوقع السلطان الملك الناصر «بالسودان والأرمن»[3]، و{نكث}[4] أمر المصريين و قطع أخبارهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع إقطاع العاضد و قبض

---

(١) أورد ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي عن مراسلات نور الدين إلي صلاح الدين ، انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق١ ، ص ١٦١).

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ (طبعة دار الكتب) .

(٣) نجح صلاح الدين في ذي القعدة عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م في قمع فتنة قادها « مؤتمن الخلافة جوهر » ، وهو خصي من الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمي ، وكان له الإشراف الكامل علي القصر . وقام بمراسلة الصليبيين ليحثهم علي غزو مصر ليقضي علي صلاح الدين ، فكشف صلاح الدين ما يدبر له وقام بقتله ، فثار لقتله طوائف العسكر المصري من السودان والأرمن ، فتمكن صلاح الدين بعد عدة معارك من القضاء عليهم . لمزيد من التفاصيل انظر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ ، ٣١١-٣١٣) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « نكب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٦) .

جميع ما كان بيده من البلاد واستولى على القصور و وكل بها و بمن فيها «قراقوش الخادم»، خلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ ؛ ثم شرع و أبطل من الآذان حى على خير العمل، وأنكر على من يتسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، و {أعداءه قليلين}[١] شرع حينئذ فى الخطبة لبنى العباس[٢]»[٣].

بدأ صلاح الدين أخذ الخطوات التنفيذية لإجراء هذا التحول الكبير فى الجمعة الأولى من المحرم عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، وسبق ذلك اجتماعا عقده مع كبار أمرائه، وعلى الرغم من انقسام الآراء فى هذا الاجتماع بين مؤيد و معارض إلا أنه قرر ـ كما أوضح «ابن الأثير» ـ الامتثال لأمر نور الدين محمود[٤].

وقد انفرد ابن أبى طى بذكر الدور المهم الذى قام به نجم الدين أيوب والد صلاح الدين فى ذلك الوقت، فقال: « ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع فى جماعة من أصحابه وأمراء دولته، وذلك فى أول جمعة من السنة، وأمره أن يُحضر الخطيب إليه و يأمره بما يختار. و إنما فعل الملك الناصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهارا و خوفا من فادحة ربما طرأت أو عدو ربما ثار، فيكون هو معتذرا من ذلك»[٥].

وفى الحقيقة فنحن لا نستبعد مشاركة نجم الدين أيوب فى هذا الأمر الجلل، حيث كان نجم الدين أيوب أميرا ذا هيبة ومكانة كبيرة، وتجلى هذا بوضوح عند خروج الخليفة

---

(١) فى طبعة « دار الجيل » : « أعداؤه قليلون » (المصدرنفسه ، ص ١٩٦).

(٢) أورد ابن الفرات نفس رواية ابن أبي طي عن الإجراءات التي قام بها صلاح الدين قبل قطع الخطبة الفاطمية . انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق١ ، ص ١٦١) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١١١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٥٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٥ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٩ .

الفاطمى العاضد لدين الله إلى استقباله، عند وصوله إلى القاهرة فى عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م وهذا أمر لم يحدث من قبل - كما ذكرنا سابقا - ولعل صلاح الدين قد فكر فى تصدى والده لهذا الأمر، حتى يخشى الناس معارضته.

وفى الجمعة الأولى من المحرم عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م بدأت الخطبة باسم الخليفة العباسى المستضئ بأمر، وكان ذلك - كما أوضح العماد الأصفهانى - فى أحد جوامع الفسطاط، وذكر ابن الأثير أن رجلا أعجميا عرف «بالأمير العالم»، كان قد حضر اجتماع صلاح الدين، فأعلن عن رغبته فى المعاونة فى إعلان الخطبة، فصعد على المنبر قبل الخطيب ودعى للخليفة العباسى[1].

وقد اختلف ابن أبى طى معهما فى ذلك، وأكد فى كتاباته أنه لم يدعى فى الخطبة فى الجمعة الأولى باسم الخليفة المستضئ بأمر الله العباسى، و إنما اسقط منها فقط اسم الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله. فقال: «ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب و قال له: إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك. فقال: فلمن أخطب ؟ قال: للمستضئ العباسى، فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحدا، لكنه دعا للأئمة المهديين وللسلطان الملك الناصر، ونزل فقيل له فى ذلك فقال: ما علمت اسم المستضئ و لا نعوته، و لا تقرر معى فى ذلك شئ قبل الجمعة، وفى الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله فى تحرير الاسم والألقاب على جارى العادة فى مثل ذلك[2]»[3].

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق،ص٥٨؛ابن الأثير:المصدر السابق،ج٩،ص١١١ .وانظر أيضا :ابن خلكان:المصدر السابق،ج٧،ص١٥٧؛النويري:المصدر السابق، ج ٢٨ ، ص ٣٤٥ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٦؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٧ .

(٢) تطابقت روايات ابن الفرات والمقريزي مع رواية ابن أبي طي في هذا النص انظر : (ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٦٢ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،ج٣ ، ص٣٢٥ ؛).

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٩ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٣ - ١٥٤.

أما بالنسبة لموقف الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله من هذه الأحداث، فقد أوضح «ابن الأثير» أنه لم يخبره أهله بشئ لأنه كان مريضا فى ذلك الوقت[١]، و اختلف ابن أبى طى معه فى هذا الرأى، وأكد أن العاضد علم بما حدث، وتنبأ بما سيحدث فى الجمعة التالية، فقال: «وقيل أن العاضد لما اتصل به ما فُعل من قطع اسمه من الخطبة قال: لمن خُطب ؟ قيل له لم يُخطب لأحد مسمّى. قال: فى الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمّى[٢]»[٣].

ومن المصادفات الغريبة أن الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله (٥٥٥ـ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ـ١١٧١ م) توفى بعد قطع اسمه من الخطبة بأيام قليلة، وقبل أن يأتى يوم الجمعة التالى على بدء هذه الأحداث، وهذا الأمر أثار جدلا كبيرا بين المؤرخين القدامى وتعددت الأسباب التى أوردوها فى تفسير ذلك.

فذكر «ابن الأثير» أن العاضد كان مريضا مرضا شديدا، واتفقت وفاته من هذا المرض مع وقوع هذه الأحداث[٤]، وأورد ابن أبى طى ثلاثة أراء أخرى فى تفسير وفاة العاضد، فقال: «واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل: أنه أفكر و استولى عليه الفكر والهم حتى مات[٥]. وقيل أنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر و سقط، فأقام متعللا خمسة أيام ومات. وقيل أنه امتصّ فص خاتمه، و كان تحته سمّ، فمات»[٦].

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١١١ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠١ـ ٢٠٢ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٥ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ .

(٢) تطابقت رواية ابن الفرات مع رواية ابن أبي طي عن معرفة العاضد بأمر قطع اسمه من الخطبة ، وذكر المقريزي ملخصا لروايته انظر : (ابن الفرات: تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص١٦٢ ؛المقريزي: اتعاظ الحنفا ، ج ٣، ص ٣٢٥) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق،ج١ ،ق٢،ص٤٩٩ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١١١ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١، ص ٢٠١ ؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٤٥؛ المقريزي :المصدر السابق، ص ٣٢٥

(٥) أورد الحنبلي هذا السبب ضمن الأسباب الأخرى التي ذكرها . (شفاء القلوب ، ص ١٠٠) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٩ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤ .

كما أورد النويرى رأيا آخر، وجه فيه اتهاما إلى صلاح الدين، بأنه قام باعتقال العاضد، فكان معه خاتما تحت فصه سما فمصه فمات لذلك[١].

وقد أوضح ابن أبى طى أن صلاح الدين ندم بعد موت العاضد على قيامه بقطع اسمه من الخطبة قبل وفاته، فقال: «ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة[٢]»[٣].

وقد أكد المؤرخ أبو شامة ما ذكره ابن أبى طى عن ندم صلاح الدين، وذكر أن صلاح الدين كان نادما على استعجاله فى قطع الخطبة أثناء مرض العاضد[٤].

ثم عرض ابن أبى طى فى ختام روايته لرأى آخر يشير إلى أن العاضد مات منتحرا فقال: «فحُكى أن القاضى الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت ؛ أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء[٥]»[٦].

ثم عرض ابن أبى طى لأحدى الرؤى التى أشارت إلى عودة مصر إلى تبعية الخلافة العباسية، وهذه هى المرة الثالثة فى هذا الفصل، التى يهتم فيها ابن أبى طى بذكر رؤية تنبئ بحدث كبير، فذكر من قبل رؤية شاور قبل وفاته، ثم رؤية أسد الدين شيركوه قبل ولايته للوزارة. وهذا الاهتمام بذكر مثل هذه الرؤى لم يقتصر على كتابات ابن أبى طى، بل اهتم بذكرها كثير من المؤرخين على سبيل الفأل الحسن.

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٥ .

(٢) تطابقت رواية ابن الفرات مع ما أورده ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٦٢) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٩ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤ .

(٤) المصدر السابق،ج١،ق٢، ص٤٩٤ . وانظر أيضا : أبو المحاسن : المصدر السابق،ج ٥،ص ٣٥٦

(٥) تطابقت هنا أيضا رواية ابن الفرات مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١، ص ١٦٢) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق،ج١،ق٢،ص٤٩٩؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤

وقد اعتمد ابن أبي طى على كتاب سيرة ابن هبيرة لابن المارستانى فى كتابة هذه الرؤية، فقال: «وحكى ابن المارستانى فى سيرة «ابن هبيرة»[١] الوزير، قال: إن من عجيب ما جرى فى أمر المصريين، أن رأى «إنسان»[٢] من أهل بغداد فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، و الأنور منهما مُسامت للقبلة، وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحركهما، و أثر حركتها و ظلها فى الأرض ؛ و كان الرجل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرءون بألحان و أصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا فقالوا قد استبدل الناس بإمامهم. قال وكأن الرجل 'ستقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماما برا تقيا، واستيقظ الرجل. وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد،

فعبر المنام بأنَّ الإمام الذى بمصر يستبدل به وتكون الدعوة لبنى العباس لمكان اللحية السوداء، وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر فى أول مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبنى العباس بها على يده[٣]»[٤].

---

(١) هوعون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة : ولد في عام٤٩٩هـ/ ١١٠٥م في قرية بالعراق تعرف«بالدور»من أعمال«دجيل». تعلم في صباه الكثير من العلوم الدينية . فكانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة والعروض والفقه،ودخل بغداد وجالس الفقهاء والعلماء.وبدأت خدمته في الخلافة العباسية عندما عينه الخليفة المقتفي لأمر الله « مشرفا في المخزن»ثم« صاحب الديوان»،وأصبح وزيرا له في عام٥٤٤هـ/ ١١٤٩م ولقب« بعون الدين»،وبعد وفاة المقتفي عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م،استمر وزيرا لولده المستنجد بالله،وكان المقتفي والمستنجد يقولان عنه:ما وزر لبني العباس كيحيى بن هبيرة في جميع أحواله.وتوفي في عام٥٦٠هـ/ ١١٦٥م(ابن الجوزي:المنتظم،ج١٠،ص٢١٤ـ٢١٧؛ابن خلكان:وفيات الأعيان،ج٦،ص٢٣٠ـ٢٣٣؛ابن طباطبا:الفخري،ص٣١٢ـ ٣١

(٢) هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحدي . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٠ (هامش (١)) .

(٣) تطابقت رواية ابن الفرات تطابقا حرفيا مع ما أورده ابن أبي طي عن هذه الرؤية ، انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ (طبعة دار الكتب) ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤ .

ثم عرض ابن أبى طى قصيدة قيلت بعد تأويل هذه الرؤية فقال: «وقيلت فى ذلك الزمان أشعار فى هذا، منها قصيدة «شمس المعالى أبى الفضائل الحسين بن محمد ابن تركان»، وكان {صاحب}[1] ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام:

لتهنك يا مولى الأنام بشارة ... بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادى بهمّة ... تقاصر عنها السمهرى المثقف
بعثت إلى شرق البلاد و غربها ... عوثا من الآراء تحيى و تتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر ... ونابت مناب الرمح و الرمح يرعف
وقدت لها جيشا من الروع هائلا ... إلى كل قلب من عداتك {يزحف}[2]
ملكت به أقصى المغارب عنوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنئك يا مولاى فتحا تتابعت ... إليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها ... من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة ... يعاف التقى و الدين منهم و يأنف
فطهرها من كل شرك و بدعة ... أغر غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد و تشرف
ولاغرو وإن دانت ليوسف مصره ... و كانت إلى علیائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسف

ثم قال ابن أبى طى: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبى صلى الله عليه وسلم، وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل ؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت:

---

(١) في طبعة « دار الجيل » . « حاجب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٧) .
(٢) في طبعة « دار الجيل » . « يرعف » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٧) .

فـــشابهته خلقـــا و خلقـــا و عفـــة وكـــل عـــن الـــرحمن فى الأرض يخلـــف

وجرى الفآل فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس، وهذا من عجيب الاتفاق[1]»[2].

ثم تناول ابن أبى طى الأحوال الداخلية فى مصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية، وعودة مصر إلى تبعية الخلافة العباسية، فأوضح الإجراءات التى اتبعها صلاح الدين مع الشيعة من المصريين، فقال: «و لما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية و تتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصريا أخذ ثيابه، و عظمت الأذية بذلك ؛ و جلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد»[3].

وقد انفرد ابن أبى طى بما ذكره فى هذه الرواية عن الإجراءات التى قامت بها قوات صلاح الدين مع الشيعة الإسماعيلية فى مصر، وقد يؤخذ هذا الرأى على ابن أبى طى باعتباره شيعى المذهب، ولكننا نعتقد أن ما ذكره عن قمع قوات السُنة للمصريين الشيعة أمرا طبيعيا، يحدث فى كل العصور، لضمان سيطرة السلطة الحاكمة الجديدة على مقاليد الأمور.

وقد نجحت هذه السياسة فى البداية مع المصريين، ولم تظهر أية حركات معارضة أو كما ذكر «ابن الأثير»: «لم يتنطح فيها عنزان»[4]. ولكن بعد عامين من قطع الخطبة الفاطمية قام

---

(١) تطابقت رواية ابن الفرات عن هذه القصيدة مع رواية ابن أبي طي ، و كذلك مع التعليق الذي ذكره بعدها . انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١، ص ١٥٦ ـ ١٥٧) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٠ـ ٥٠١ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠١ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٦٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١١١ . وانظر أيضا : بن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٥٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠١ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥١ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٥ .

تنظيم كبير لإعادة الحكم الشيعي، وسنوضح تفاصيل ذلك في الفصل القادم.

وقد كانت عودة مصر إلى تبعية الخلافة العباسية في بغداد بعد انقطاع دام أكثر من قرنين انتصارا كبيرا، ولهذا أرسل نور الدين محمود «شهاب الدين أبا المعالي بن أبي عصرون» إلى الخلافة للتبشير به، وأمر نور الدين محمود «العماد الأصفهاني» بإنشاء بشارة عامة تقرأ في مختلف البلاد الإسلامية، وبشارة خاصة تقرأ في الخلافة العباسية في حضرة الخليفة المستضيء بأمر الله[1].

واتفق ابن أبي طي في ذلك مع العماد الأصفهاني وأورد نفس روايته فقال: «وفرح الناس بذلك و كتب الكتب به إلى الأقطار وتحدث به السمار. ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد «شهاب الدين أبا المعالي المطهر ابن أبي عصرون»، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها»[2].

وقد انفرد ابن أبي طي بذكر نص البشارة العامة التي كتبها العماد الأصفهاني فقال فيها: «أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن و البلاد و الأقطار و الأمصار المصرية و الإسكندرية، ومصر و القاهرة، و سائر الأطراف الدانية و القاصية و البادية و الحاضرة ؛ وانتهت إلى القريب و البعيد، وإلى قوص و أسوان بأقصى الصعيد ؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله.

وما برحت همتنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة

(١) المصدر السابق ، ص ٦٠ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٥٠٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ،ج ١، ص ٢١٦؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤، ق ١،ص١٧٤

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ (طبعة دار الكتب) .

الدعوة الهادية بها ماضية، و الأقدار فى الأزل بقضاء آرائنا و{إنجاز}[١] مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها. وطالما مرت عليها الحقب الخوالى، و آبت دونها الأيام و الليالى، و بقيت مائتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين، مملوَّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضلال مقفرة المحل إلا من المحال، مفتقرة إلى نصرة من الله {تملكها}[٢]، ونظرة ستدركها، رافعة يدها فى أشكائها، متظلمة إليه، {ليتكفل بإعدائها}[٣] على أعدائها، حتى أذن الله لغُمتها بالانفراج، ولعلتها بالعلاج ؛ وسبب قصد الفرنج لها، و توجههم إليها طمعا فى الاستيلاء عليها. واجتمع داءان: الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا فى الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمله فى إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض، و تقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة و يستنجح باب مالنا من الإرادة، و يقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك، ويورد {الأدعياء}[٤] و دعاة الإلحاد بها المهالك»[٥].

ثم قال ابن أبى طى: «وسار شهاب الدين بن أبى عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر»[٦].

ويعد استقرار الأمور فى مصر قام صلاح الدين فى الثالث من صفر عام ٥٦٧ هـ /

---

(١) في طبعة « دار الجيل » . « بتنجيز » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٧) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « يملكها » . (المصدر نفسه ، ص ١٩٨) .

(٣) في نفس الطبعة . « ليكفل باء عدائها » . (المصدر نفسه والصفحة) .

(٤) في نفس الطبعة .. « الأدعيا » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

(٥) ذكر أبو شامة في ختام البشارة : « وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض و هو هذا » ، وذكر ابن الفرات النص الكامل للبشارة . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٢ (طبعة دار الكتب) ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٧) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٢ .

١١٧١ م، برفع «المكوس»[١]، وقد أورد «أبو شامة» نص السجل الذى تتضمن قرار صلاح الدين بإسقاط المكوس، وجاء فيه: « خرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة و مصر، و جميع التجار المترددين إليهما، وإلى ساحل المقسم..... بأبواب المكوس صادرها وواردها.... و الذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العيّن مائة ألف دينار»[٢].

وقد أوضح ابن أبى طى أن هذه المكوس كانت تؤخذ على المواد التى تتعلق بديوان الصناعة، والتى تتعلق أيضا ببضائع الوجهين البحرى والقبلى، فقال: «وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم: {ما}[٣] يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار

وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار؛ فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل {به}[٤] من ديوان الإنشاء، و أنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على {المنابر}[٥]»[٦].

وقد أورد «المقريزي» بيان مفصل بالأصناف التى أسقط عنها المكوس، وقيمة المكس

---

(١) المَكْسُ : في اللغة : الجباية و الضريبة . وقد استحدث مصطلح « المكس » كما يقول المقريزي في عهد الخلافة الفاطمية عندما بدأ يسري الضعف بها ، وأطلق علي ما كان يسمي « بالأموال الهلالية » ، والتي كانت تأخذ من التجار . وقد أوضح « القلقشندي » أن المكوس كانت تأخذ علي التجارة الخارجية القادمة من الشام و العراق والحجاز و اليمن وما والاهما ، وأيضا علي التجارة الداخلية في الفسطاط و القاهرة ، وتأخذ من اثنين و سبعين جهة . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ١٦٠ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص١٠٣-١٠٤ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٦) .

(٢) المصدر السابق،ج١، ق٢، ص٥٢٢-٥٢٣.وانظر أيضا:النويري:المصدر السابق،ج٢٨، ص ٣٦٤.

(٣) في عيون الروضتين « مما » . (ق ١ ، ص ٣٢١) .

(٤) ساقطة من عيون الروضتين . (ق ١ ، ص ٣٢١) .

(٥) في عيون الروضتين « المنبر » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ ؛ عيون الروضتين ، ق ١ ، ص ٣٢١.

الذى كان يؤخذ على كل نوع[١]، و شمل هذا البيان ما ذكره ابن أبى طى عن المكوس التى تتعلق بديوان الصناعة[٢]، وبالوجهين البحرى و القبلى[٣] هذا بالإضافة إلى المكوس الخاصة بالقاهرة و الفسطاط[٤].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن المقريزى قد حدد فى بيانه الذى شمل جميع المكوس التى أسقطت فى ديوان الصناعة والأعمال القبلية والبحرية والقاهرة و الفسطاط بمائة ألف دينار، فى حين قدر ابن أبى طى قيمة المكوس عن ديوان الصناعة و الوجهين البحرى و القبلى بمائتى ألف دينار، وهذا الاختلاف لم نتوصل إلى تفسير له.

ثم أوضح ابن أبى طى أنه فضلا عن إسقاط صلاح الدين المكوس فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، فأنه أسقط العديد من المكوس التى كانت مسجلة فى السجلات ولم تدفع حتى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، فقال: «وعرض عليه سياقه جرائد الدواوين فى جهات المستخدمين والعاملين لعدة سنين متقدمة، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفى ألف إردب غله، فسامح {فى جميع}[٥] ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين»[٦].

كما قام أيضا صلاح الدين بإسقاط المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج فى الحجاز

---

(١) الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) من ذلك المواد الواردة لديوان الصناعة من النحاس و المرجان و الورق و الكتان و الغلات والحبوب وغيرها . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٣) من ذلك المواد الواردة من الوجه البحري و القبلي من المنسوجات الشرب و الديبقي و القطن والسكر والكتان وغيرها. (المصدر نفسه ، و الصفحة) .

(٤) من ذلك المكوس التي تأخذ علي أسواق الغنم و الدواب و الجمال و السمك و الرقيق وغيرها . (المصدر نفسه ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥) .

(٥) في عيون الروضتين « بجميع » . (ق ١ ، ص ٣٢٢) .

(٦) أبو شامة : الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٤٣؛ عيون الروضتين، ق١، ص٣٢٢؛ المقريزي: المصدر السابق، ص١٠٥ .

فقال ابن أبى طى: «وأُنهى إليه ما يُستادى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع ؛ فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين و الغلة أشياء يطول شرحها»[١].

وقد أورد «النويري» تفاصيل هذا الموضوع ضمن أحداث عام ٥٦٩ هـ وأوضح أن صلاح الدين كان قد عوض أمير مكة عن ما قرره من اسقاط المكوس فى كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحا تُحمل إلى ساحل جدة، كما عين لذلك ضياعا بمصر، وقرر أيضا حمل غلات إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء[٢].

ثم أعيدت المكوس فى مصر مرة أخرى فى فترة حكم «الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين»[٣] (٥٨٩ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٩٣ ـ ١١٩٨ م)، وقد ذكر ابن أبى طى ذلك فقال: «فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين يوسف أعاد المكوس وزاد فى شناعتها»[٤].

وفى حقيقة الأمر فإننا لم نجد بين كتابات كثير من المؤرخين ما يؤيد رأى ابن أبى طى هذا، وعلى العكس من ذلك فقد أورد «النويري» أن الملك العزيز كان قد أطلق جميع ما كان يؤخذ من التجار و غيرهم من المكوس على اسم الزكاة[٥].

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ ؛ عيون الروضتين ، ق ١ ، ص ٣٢٢.

(٢) المصدرالسابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٦٦ .

(٣) هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان : ولد في عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م ، سمع بالإسكندرية من « السلفي » و « ابن عوف » ، و أناب عن والده السلطان صلاح الدين في حكم مصر منذ عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٧ م ، ثم استقل بها بعد وفاة والده في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣ م ، وتولي القاضي الفاضل الوزارة له ، و توفي الملك العزير عثمان في المحرم عام ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨م . (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ١، ق ٢ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٦) .

(٤) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٥) المصدر السابق ، ح ٢٨ ، ص ٤٤٢ .

سيطرة صلاح الدين على القصور الفاطمية

بعد سقوط الخلافة الفاطمية أصبحت «القصور و الذخائر الفاطمية[١]» تحت سيطرة صلاح الدين، وكانت تشتمل على الكثير من الأعلاق النفيسة والجواهر، ومن ذلك «الحبل الياقوت» ـ وقد رآه «ابن الأثير» ووزته ـ و«النصاب الزمرد» واللؤلؤ الفريد، و«طبل القولنج[٢]»[٣].

وقد أورد ابن أبي طي تفاصيل أخرى عن هذه الذخائر فقال: «ولما «فرغ»[٤] السلطان «صلاح الدين من توطيد المملكة»[٥]، «ومن أمر»[٦] الخطبة «و التعزية»[٧]، «أمر بالقبض على القصور و جميع ما فيها من مال و ذخائر و فرش و سلاح و غير ذلك»[٨]، «فلم يوجد

---

(١) كان بالقصر الكبير عدة خزائن منها : خزانة الكتب ، وخزانة البنود ، وخزائن السلاح ، وخزائن الدرق ، وخزائن السروج ، وخزائن الفرش ، وخزائن الكسوات ، وخزائن الأدم ، وخزائن الشرب ، وخزنة التوابل ، وخزائن الخيم ، وخزائن الجوهر و الطيب . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٨) .

(٢) صنع طبل القولنج في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٥٢٦ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٣١ ـ ١١٤٩ م) حيث كان كثير المرض بمرض القولنج ، وكان إذا ضرب به مَنْ به قولنج خرج عنه الريح . (ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٣٨) .

(٣) الكامل ، ج ٩ ، ص ١١٢ ؛ الباهر ، ص ١٥٦ . وانظر أيضا : المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٤) في رواية ابن كثير التي أوردها عن ابن أبي طي « تفرغ » (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٥).

(٥) إضافة في رواية ابن كثير . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٦) في رواية ابن كثير : « و إقامة » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٧) إضافة في رواية ابن كثير . (المصدر نفسه ، ص ٧٨٦) .

(٨) اختلف أسلوب رواية ابن أبي طي الذي أورده عنه ابن كثير فقال : « استعرض حواصل القصرين ، فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة و الآلات و الملابس و المفارش شيئا باهرا و أمرا هائلا . (المصدر نفسه و الصفحة) .

من المال كبير أمر، لأن شاور كان قد ضيعه فى إعطائه الفرنج فى المرات التى قدمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام و كتب وجواهر[١]»[٢].

«ومن عجيب ما وجد فيه»[٣]: قضيب زمرد طوله «شبر وكَسْر»[٤] «قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام»[٥]، ووجد فيه طبل للقولنج «إذا ضرب عليه أحد فيه ريح غليظة أو غيرها خرج منه ذلك الريح من دبره، وينصرف عنه ما يجده من القولنج فاتفق أن بعض أمراء الأكراد أخذه فى يده ولم يدر ما شأنه، فضرب عليه فحبق - أى ضرط - فألقاه من يده على الأرض فكسره فبطل أمره»[٦]، «ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المانع، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر»[٧]. «فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه و أحضر صانعا ليقطعه، فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، و فرقه السلطان على نسائه»[٨]، «وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد[٩]»[١٠].

---

(١) أضاف أبو شامة هذه العبارة من نص ابن أبي طي (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦

(٢) تطابقت رواية ابن الفرات مع هذا الجزء من رواية ابن أبي طي . (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٦٦) .

(٣) أضاف أبو شامة هذه الجملة من نص ابن أبي طي (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦) .

(٤) في رواية ابن كثير : « أكثر من شبر » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦) .

(٥) اختصر ابن كثير نص ابن أبي طي إلي « و سمكه نحو الإبهام » . (المصدر نفسه و الصفحة)

(٦) اختصر أبو شامة رواية ابن أبي طي إلي : « وأما طبل القولنج : فإنه وقع إلي بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره ، لأنه ضرب به فحبق » .(الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦) .

(٧) اتفق أبو شامة وابن كثير في نقل هذه العبارة من نص ابن أبي طي . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦) .

(٨) اختصر ابن كثير هذه العبارة من رواية ابن أبي طي إلي : « وأما القضيب الزمرد فإن صلاح الدين كسره ثلاث فلق ، فقسمه بين نسائه » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦) .

(٩) تطابقت رواية ابن الفرات مع هذا الجزء من الرواية . (تاريخه ،ج ٤، ق١، ص١٦٧) .

(١٠) (١٠)أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٦ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٧-١٥٨ .

أما بالنسبة لموقف صلاح الدين من أولاد الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، وأهله، فقد أوضح «العماد الأصفهاني»، أنه نقل أولاده إلى مكان خارج القصر، وقرر لهم ما يكفيهم من الطعام و الكسوات، ووكل أمرهم إلى قراقوش الخادم، أما باقى أهله فقد فرق بين النساء والرجال منهم لمنع التناسل بينهم[١]، وقد أورد ابن أبى طى نفس رواية العماد الأصفهانى عن هذا الموضوع فقال: «واحتاط السلطان على «أهل العاضد وأولاده»[٢] فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم»[٣].

ثم قام صلاح الدين بإحصاء الجوارى و العبيد فى القصور الفاطمية، فأعتق بعضهم - كما أوضح العماد الأصفهانى - ووهب البعض الآخر[٤]، وقد اتفق معه ابن أبى طى فى ذلك وقال: «واستعرض من بالقصر من الجوارى و العبيد، و العدة، و«العديد»[٥]، والطريف و«التليد»[٦]، فأطلق من كان منهم حرا، وأعتق من رأى إعتاقه، ووهب من أراد هبته[٧]»[٨].

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٩ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣١ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠ .

(٢) ظل أولاد العاضد وأهله معتقلين حتى نقلوا في عام ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م إلي قلعة الجبل ، وظلوا هناك حتي وفاة الأمير داود بن العاضد في عام ٦٧١ هـ/ ١٢٧٢ م . (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٤٥ ، ج ٢٩ ، ص ٤١) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٩ ، ص ١١٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣١ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٥) العديد : بمعني إحصاء الشئ . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٩ ، ص ٧٦) .

(٦) التليد : يطلق علي الجارية التي ولدت ببلاد العجم وحُملت فنشأت ببلاد العرب . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢) .

(٧) تطابقت رواية ابن الفرات مع نص ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ح ٤ ، ق ١ ، ص ١٦٧) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

وقد قام صلاح الدين بمنح أمرائه بعض من الذخائر الفاطمية، وعرض بعض منها للبيع، واستمر البيع فيها. كما ذكر العماد الأصفهاني - لمدة عشر سنوات[١]، وقد اتفق ابن أبى طى مع العماد فى ذلك، فقال: «وفرق علي»[٢] «الأمراء و الأصحاب من نفائس القصر و ذخائره»[٣] شيئا كثيرا «وحصل هو على اليتيمات»[٤] و«قطع»[٥]«البلخش»[٦] و الياقوت «و الفضة و الأثاث و الأمتعة»[٧] و «قضيب الزمرد»[٨]، «وأطلق البيع بعد ذلك فى كل جديد وعتيق، فأقام البيع بالقصر مدة عشر سنين»[٩].

ومن أهم الذخائر التى خلفتها الدولة الفاطمية فى مصر، كانت خزانة الكتب فى القصر الشرقى الكبير[١٠]، و كانت تحتوى كما يقول «ابن الأثير» على الكتب النفيسة التى لا مثيل

(١) المصدر السابق ، ص ٥٩ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) في رواية ابن كثير التي أوردها عن ابن أبي طي « قسم بين » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦) .

(٣) أضاف أبو شامة هذه العبارة من رواية ابن أبي طي . (أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧).

(٤) أضاف أبو شامة هذه الجملة من نص ابن أبي طي (المصدر نفسه ، و الصفحة) .

(٥) كانت ثلاث قطع : الأولى نيف وثلاثين مثقالا ، و الثانية ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونها . وأرسل صلاح الدين هذه القطع إلى نور الدين من جملة هدايا . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٦٤ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ١٠١) .

(٦) البَلَخْشُ : نوع من نفائس الأحجار . وانعقاده في الأصل ليكون ياقوتا ، ومنعه من ذلك علل من اليُبس و الرطوبة . ومنشأه بنواحي « بَلَخْشَان » بالقرب من الصين . ومنه ثلاثة ألوان : أحمر مُعفْرب وهو أجودهم ، وأخضر زَبَرْجَدي ، وأصفر . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، ١٠٣ - ١٠٤) .

(٧) أضاف ابن كثير هذه الجملة من نص ابن أبي طي (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦) .

(٨) أضاف أبو شامة هذا الجزء . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧) .

(٩) في رواية ابن كثير التي أوردها عن ابن أبي طي « ثم باع ما فضل عن ذلك ، وجمع عليه أعيان التجار ، فاستمر البيع فيما بقي هنالك من الأثاث و الأمتعة نحوا من عشر سنين » . وقد تطابقت رواية ابن الفرات مع نص ابن أبي طي الذي ذكره أبو شامة عن هذه العبارة ، و الذي أوردناه في المتن ، انظر : (ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٦٧) .

(١٠) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٤ ، ٤٠٨ - ٤٠٩ .

لها[١]، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر المزيد من التفاصيل عن المكتبة الفاطمية، فقال: «ووجد خزانة كتب ليس لها فى مدائن الإسلام نظير»[٢]. ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، «ويقال»[٣] انه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر[٤]. «ومن عجائبها»[٥]: أنه كان بها ألف و مائتان «وعشرون»[٦] نسخة من تاريخ «الطبري»[٧]»[٨].

وكانت المكتبة الفاطمية تحتوى كما ذكر «العماد الأصفهاني» على أكثر من مائة و عشرين ألف مجلدة[٩]، وقد أورد ابن أبى طى رقما أكبر بكثير من الذى ذكره العماد الأصفهانى،

---

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١١٢ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٣ .

(٢) إضافة في رواية ابن كثير التي أوردها نقلا عن ابن أبي طي (البداية، ج ١٢، ص ٧٨٦) .

(٣) إضافة في رواية المقريزي التي أوردها عن ابن أبي طي . (الخطط، ج ١، ص ٤٠٩) .

(٤) اتفق أبو شامة و المقريزي في نقل نص هذه العبارة عن ابن أبي طي . (أبو شامة : الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٧ ؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٤٠٩) .

(٥) في رواية ابن كثير . « ومن عجائب ذلك » . (البداية، ج ١٢، ص ٧٨٦) .

(٦) حذف المقريزي هذا الرقم من نص ابن أبي طي في كتابة الخطط، وأورده في كتابه « اتعاظ الحنفا » دون أن يصرح أنه رأي ابن أبي طي، و أكده أبو شامة و ابن كثير في نقلهم من ابن أبي طي (أبو شامة : الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٧ ؛ ابن كثير : البداية، ج ١٢، ص ٧٨٦ ؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٤٠٩ ؛ اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٣١) .

(٧) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري : ولد في عام ٢٢٤ هـ / ٣٨ ـ ٨٣٩ م بمدينة آمل بطبرستان، كان إماما في كثير من العلوم منها : التفسير و الحديث و الفقه و التاريخ، و قد ألف في التاريخ كتابه الكبير المسمى « تاريخ الأمم و الملوك » . وقد علق المؤرخ ابن خلكان على كتاباته التاريخية بقوله : « كان ثقة في نقله، وتاريخه أصح التواريخ و أثبتها » . وتوفي الطبري في بغداد في عام ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م . (ابن الأثير : الكامل، ج ٦، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٩١ ـ ١٩٢) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٧ ؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٨٦ ؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٤٠٩ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق، ورقة ١٥٨ ـ ١٥٩) .

(٩) المصدر السابق، ص ٥٩ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٣ .

فقال: «ويقال أنها كانت «تشتمل»[١] على «ألفى ألف وستمائة ألف»[٢] «كتاب»[٣]، وكان فيها من الخطوط المنسوبة {أشياء كثيرة[٤]}[٥]»[٦].

وقد أيد المقريزى الرقم الذى ذكره ابن أبى طى عن عدد الكتب فى المكتبة الفاطمية بقوله: «ومما يؤيد ذلك أن «القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علي» لما أنشأ «المدرسة الفاضلية» بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد وباع «ابن صورة» ـ دلال الكتب ـ منها جملة فى مدة أعوام، فلو كانت كلها مائة ألف، لما فضل عن القاضى الفاضل منها شئ»[٧].

---

(١) قال هنا أبو شامة في روايته التي أوردها نقلا عن ابن أبي طي : « تحتوي » . (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ، طبعة دار الكتب).

(٢) اختلفت المصادر التي جمعنا منها رواية ابن أبي طي في تحديد هذا الرقم ، فذكر أبو شامة في طبعة « دار الجيل » : « ألفي ألف » ، واتفق « ابن كثير » مع هذه الطبعة ، وأضاف د : محمد حلمي في تحقيق طبعة دار الكتب المصرية نسخة أخري من كتابات أبي شامة ، وزادت هذه النسخة الرقم إلي : « ألفي ألف و ستمائة ألف » ولم يشر لهذا الاختلاف بين النسختين . وأورد « المقريزي » في نقله من ابن أبي طي في كتابه الخطط « ألف و ستمائة ألف » ، وهذا الرقم يبدو ناقصا ، ونرجح أنه سقط رقم قبل الألف في الطباعة ، وذكر أيضا المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا رواية ابن أبي طي عن هذا الرقم دون أن يصرح بنقله منه فقال « ألف ألف وستمائة ألف » . وقد رجحنا في النهاية رواية أبي شامة عن طبعة دار الكتب لاتفاق القسم الأول من الرقم مع ابن كثير ، و القسم الثاني مع المقريزي في الخطط ، ولأننا اعتمدنا علي هذه الطبعة في معظم روايات أبي شامة التي أخذها من ابن أبي طي طوال هذه الداراسة . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠ (طبعة دار الجيل) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ (طبعة دار الكتب) ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٩ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٣١) .

(٣) في رواية ابن كثير « مجلد » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » . « شئ كثير » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) .

(٥) أورد ابن الفرات رواية ابن أبي طي عن عدد الكتب فقال : « ألف ألف و ستمائة ألف كتاب » (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٦٧) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٧) الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

وانفرد ابن أبى طى ببعض المعلومات المهمة التى حدثه بها «شمس الخلافة موسى» عن شراء القاضى الفاضل لهذه الكتب، فقال: «وحصل للقاضى الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها ؛ وذلك أنه دخل إليها و اعتبرها، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه فى بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على إنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب[١]، كذا أخبرنى جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى ابن محمد»[٢].

وقد أكد «العماد الأصفهاني» ما ذكره ابن أبى طى عن الإهمال الذى تعرضت له المكتبة الفاطمية، وذلك عندما زار مصر فى عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م . فذكر أن الكتب كانت تباع يومان كل أسبوع بالمجان، و بأرخص الأثمان، وكان بهاء الدين قراقوش ، القائم على بيع الكتب، فأقنعه بعض دلالى الكتب بإخراج الكتب من خزانتها لتهويتها، ففعل ذلك، وكان قصدهم من ذلك كما يقول العماد: «أن يوكسوها و يخرموها». ونتج عن ذلك أن اختلطت جميع الكتب. وقد اشترى العماد الكثير من هذه الكتب وملأ بها ثمانية أحمال[٣].

أما القصور الفاطمية، فقد فرقها صلاح الدين بين أهله وأمرائه، قال ابن أبى طى فى ذلك: «واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالى للأمراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين فى «اللؤلؤة»[٤]، وهو قصر عظيم على الخليج الذى فيه «البستان الكافوري»[٥] ؛ ونقل «الملك

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٩ .
(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩ ، ١١٦ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .
(٤) قصر اللؤلؤة : ويعرف أيضا بمنظرة اللؤلؤة ، ويقع علي الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وكان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وكان يشرف من شرقيه علي البستان الكافوري ومن غربيه علي الخليج . (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٦٧) .
(٥) البستان الكافوري : يقع بالقرب من القصر الغربي الصغير ، أنشأه الأمير « أبو بكر محمد ابن طغج

العادل»[١] إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن دارا أخرج منها صاحبها وسكنها[٢]»[٣].

وختم ابن أبي طي كتاباته عن الخلافة الفاطمية بقوله: «وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، و استخدموا العباد، مائتين وثمانين سنة و كسورا[٤]»[٥].

ثم روى قصة قيلت عن الخليفة العاضد وفيها تنبأ بسقوط دولته، وولاية غيره الحكم في مصر، وهي من الروايات التي تبشر بوقوع حدث كبير والتي كان يهتم ابن أبي طي بذكرها دائما ابن أبي طي في كتاباته، فقال: «وحكى أن «الشريف»[٦]

الإخشيد»، واهتم به بعد ذلك الأمير «أبو المسك كافور الإخشيدي»، وكان كثيرا ما يتنزه به، وصار بعد ذلك من منتزهات الخلفاء الفاطميين. (المقريزي: المصدر نفسه، ص ٤٥٧).

(١) هو أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين: ولد بدمشق في المحرم عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، وجاء إلى مصر ضمن حملات عمه أسد الدين شيركوه، وبعد استقلال أخوه صلاح الدين بحكم مصر أنابه عنه في حكمها، ثم ولاه صلاح الدين حكم حلب بعد ملكه لها في عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م، واستقل العادل بملك مصر وصار سلطانا للدولة الأيوبية في عام ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م، وتوفي في جمادى الآخرة في عام ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٧٤-٧٨).

(٢) تطابقت رواية ابن الفرات مع نص ابن أبي طي عن القصور الفاطمية. انظر: (تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ١٦٨).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٧؛ ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ورقة ١٥٩.

(٤) تطابقت رواية ابن الفرات مع هذه العبارة التي أوردها ابن أبي طي. (تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ١٦٨).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٧.

(٦) الشريف: اختلطت شخصية «الشريف الجليس» في هذا النص على الأستاذ الدكتور «محمد حلمي أحمد» محقق كتاب «الروضتين لأبي شامة» وكتب أنه هو القاضي الجليس «ابن الحباب» ولكن ابن الحباب توفي في عام ٥٦١ هـ/ ١١٦٥-١١٦٦ م، أي قبل توقيت هذه الرواية، والتي حدثت بعد سقوط

«الجليس»[١] وهو رجل كان قريبا من العاضد يجلس معه ويحدّثه، عمل دعوة «لشمس الدولة بن أيوب»، أخى السلطان، بعد القبض على القصور و أخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا، و أحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثنى بأعجب ما شاهدته من أمر القوم. قال: نعم. طلبنى العاضد يوما وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم «أقبية»مثل أقبيتكم، و «قلانس» كقلانسكم، وفى أوساطهم «مناطق» كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الزى الذى ما رأيناه قط ؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا و يأخذون أموالنا وذخائرنا[٢]»[٣].

وبهذه الرواية المبشرة بتغير السلطة الحاكمة فى مصر ختم ابن أبى طى كتاباته عن تاريخ الخلافة الفاطمية، وهى تعد من أهم كتاباته لانفراده بكتابة كثير من الأحداث خاصة تلك التى كان مصدره فيها شهود عيان على تلك الأحداث، ومن اهمهم «شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار»، والشريف الإدريسي».

الخلافة الفاطمية في عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م كما أوضح ابن أبي طي في روايته . ولم نقف على شخصية «الشريف الجليس» الذي أورده ابن أبي طي ، وقد أورد المقريزي اسمه ضمن المشتركين في التنظيم الذي كان يهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية في عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م ، وسوف نوضح ذلك في الفصل القادم . (العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، ج ١ ، ص ١٨٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ، هامش (٤) طبعة دار الكتب ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٣ ـ ٥٤) .

(١) الجليس : أوضح المقريزي وظيفة « الجليس » في القصر الفاطمي ، فقال : « ولابد للخليفة من جليس يُذاكرهُ ما يحتاج إلى علمه من كتابات و تجويد الخط و معرفة الأحاديث و سير الخلفاء ونحو ذلك ، يجتمع به أكثر أيام الأسبوع ، و برسمه أستاذ محنّك يحضر فيكون ثالثهما ، فيقرأ ملخص السيّر ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ورتبته عظيمة تلحق برتبة « كاتب الدّست » . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٣٨) .

(٢) تطابقت رواية ابن الفرات في هذا الموضوع مع رواية ابن أبي طي ، كما أورد المقريزي ملخصا لروايته . انظر : (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٥٨ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٣٠) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ؛ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ورقة ١٥٩ ـ ١٦٠ .